

الشعب المختار

الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الثالث



الشعب المختار

الجزء الثالث

هذه ترجمة لكتاب

Chosen People

**the big idea that shaped
England and America**

ومؤلفه كليفورد لونجلى

الصادر بالإنجليزية عن دار نشر:

Hodder & Stoughton

فى لندن عام ٢٠٠٢م وأعيد طبعه عام ٢٠٠٣م

الطبعة العربية الأولى

١٤٢٤هـ — نوفمبر ٢٠٠٣م



شارع الفتاح - أبراج عثمان أمام المريلا ند - روكسى - القاهرة

تليفون وهاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl @ hotmail. com

shoroukintl @ yahoo.com

الشعب المختار

أسطورة الفكر الأنجلو أمريكي

الجزء الثالث

كليفورد لونغلي

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم



مقدمة

أسطورة الشعب المختار

قد لا تكون هناك أسطورة في تاريخ البشرية لها ذلك التأثير مثل أسطورة «الشعب المختار»..

وبينما تحمل الفكرة معنى تكليفيًا بأن يقوم ذلك «المختار» بتبليغ رسالة إلهية، وضرب النموذج والمثل البشرية، فقد حملها البعض على أنها تفضيل إلهي له، بصرف النظر عما يقول ويفعل، وينظر إلى «الآخر» من عل، فهو ذلك «المرفوض» أو «المستبعد».

وسببت تلك الأسطورة عند بعض اليهود تكبرًا على «الآخر» واحتقارًا له واستهانة بحقوقه.. فكان رد فعل ذلك «الآخر» كراهية ونفورًا من الشعوب^(*)، مع مصادرة الأموال، بل والأرواح.. تكررت تلك الدورة في أوروبا عدة مرات على مدى قرون طويلة..

كذلك اعتنق الأنجلوساكسون تلك الأسطورة.. فكانت البروتستانتية هي «المختار» من الكاثوليكية.. وأصبحت الكاثوليكية هي بابل العاهرة.. أو مصر و فرعونها.. ثم انشق البيوريتانز عن انجلترا، فأصبحوا هم إسرائيل «المختار» وانجلترا هي بابل العاهرة، ومصر و فرعونها.. ثم أصبحت الولايات المتحدة - في حرب استقلالها عن بريطانيا - هي إسرائيل «المختار» وبريطانيا وملكها بابل العاهرة ومصر و فرعونها.

(*) في معظم فترات تاريخ اليهود، كانوا على صلات وثيقة بالحكومات في معظم أنحاء العالم، بينما كانوا في حالة «الحيثو» مع الشعوب.

ونظر الأنجلوساكسون لبقية العالم - آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - على أنهم ذلك «المرفوض»، وعلى «المختار» حمل وعبء «الرجل الأبيض» في تمدين وتحضير ذلك الآخر «المرفوض». وبالطبع كان للمصالح الاقتصادية دورها ودافعها لتبنى تلك الأسطورة، خاصة مع ضعف ذلك الآخر - آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - مقارنة ببقية دول أوروبا..

وبجانب تلك الأسطورة، هناك قناعة عند البعض الآخر في أوروبا وأمريكا بالداروينية الشاملة.. أى البقاء للأصلح، في كل المجالات.. الثقافة، القوة العسكرية، القوة الاقتصادية والمالية...

ويعتقد البعض الثالث ليبرالية انتقائية.. تظهر في مناسبات وتختفى في مناسبات.. تنطبق على البعض، ولا تنطبق على البعض الآخر..

تتنازع تلك الاتجاهات الرئيسية - من بين اتجاهات ودوافع أخرى - السيادة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وبين اليهود.. ونرى حصيلة ذلك في الشرق الأوسط.. أو قل ندفع ثمن ذلك في الشرق الأوسط..

وفي هذا الكتاب.. يستعرض الصحافي الإنجليزي الكاثوليكي «كليفورد لونجلي» تلك الأسطورة التي يرى أنها شكلت انجلترا وأمريكا.

وتباع النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب - الذي طبع مرتين - بسبعة جنيهات وتسع وتسعين پنس إنجليزي، أى ما يزيد عن ثمانين جنيهاً مصرياً، وطبعتنا المصرية في أجزاءها الثلاثة تباع بـ ٢٧ جنيهاً فقط، أى أكثر قليلاً من جنيهين استرليني.

عادل المعلم

(٧)

الإمبراطورية والإرسالية والحرب

كانت الظاهرة التي عرفناها بأنها خصائص وأعراض الشعب المختر عاملاً في التاريخ الإنجليزى بقدر ما كانت عاملاً في التاريخ الأمريكى . وجنباً إلى جنب مع التوسع التجارى والعسكرى قدمت قوة رائعة لتأسيس ما سمي فيما بعد بالإمبراطورية البريطانية الثانية ؛ إذ كانت الإمبراطورية الأولى هى التى قامت فى أمريكا الشمالية (والتى لم تبق منها سوى كندا ونوفا سكوشيا) . كانت القوة الدافعة إلى تأسيس الإمبراطورية الأولى دينية إلى حد كبير - تمثلت فى رغبة البيوريتان فى امتلاك أراض يمكنهم فيها ممارسة معتقداتهم دونما إزعاج - وكذلك كانت الإمبراطورية الثانية وإن كانت أسبابها مختلفة تماماً . ومثلما حدث مع الإمبراطورية الأولى ، اختلطت الدوافع العليا بالدوافع الأدنى ، المثالية مع السعى وراء الربح ، واللذان أمكن التوفيق بينهما تحت مبدأ «أن الرب يساعد من يساعدون أنفسهم» ، أو بمصطلحات أكثر كالفينية : «إن الله يغدق نعمته على أولئك الذين يعملون بإرادته» . بيد أن البيوريتان كان لديهم اعتقاد كالفينى بالمصير المقرر سلفاً - أى أن الرب قد قدر سلفاً من سيكونون الشعب المختر الذى سيذهب إلى السماء [أى المكتوب أو المقدر] . وعلى الرغم من أن الإنجلييين فى القرن الثامن عشر كانت لهم جذور قوية فى المذهب الكالفينى ، فإنهم اختلفوا بشكل عام حول هذه النقطة .

وكان المبشر الإنجليى الذى يمثل النموذج الأصلى هو جورج هوابتفيلد، وهو قس أنجليكانى وجهت عظامه الصحوة الكبرى الأولى فى كل من إنجلترا وأمريكا الشمالية فى منتصف القرن الثامن عشر . وكان متحالفًا بشكل وثيق مع جون

وتشارلز ويسلى ، وكان اهتمامه الأساسى مثلهما موجهاً إلى التبشير الحماسى بالإنجيل وليس إلى القواعد الكنسية . وقد كسروا القواعد حيثما كانت هناك ضرورة لذلك . فقد أدى قرار جون ويسلى بترسيم القساوسة للكنيسة الأمريكية إلى قطيعة محددة مع السلطات الأنجليكانية ، وإلى ظهور فرقة منشقة عرفت باسم الميثودية (المنهجية) . ويبدو أن أحداً من الإنجيليين الأوائل لم يتخذ خطأ كالفينياً صارماً يتعدى القدرة ؛ وعلى الرغم من أن «هوايتفيلد» سمى نفسه كالفينياً ، ولم يفعل جون وتشارلز ويسلى ذلك ؛ إذ إنهما مالا تجاه الكالفينية المعدلة لـ «جاكوبويس أرمينيوس» ، الذى كان معاصراً تقريباً لكالفن الذى أراد أن يؤكد على دور الإرادة الحرة فى عملية الخلاص .

وكانت الأرمنية فى طريقها لأن تصبح الانشقاق القياسى عن الكالفينية الصارمة فى المذهب الأنجليكانى فى ذلك الوقت ، وكانت بمثابة حل لمعضلة أن القدرة الخالصة بدت وكأنها تدين وتردى إلى الجحيم بكثير جداً من الناس الذين لم يكن لديهم خيار فى المسألة ، وهو ما بدا دعاية سيئة لحب الرب . وكان هوايتفيلد وويسلى والإنجيليون يعتقدون أن الرب يحب كل روح بشرية ويرغب فى خلاص الجميع ، وليس مجرد قلة مختارة . وهذا الخلاص يمكن كسبه بالإيمان ، والذى يتجلى معظمه فى لحظة معينة من الزمن ، وهى لحظة اعتناق الدين ، حينما تستجيب الروح بشكل جذرى للتبشير بكلمة الرب . فى هذه اللحظة كانت الروح (كما لو أنها) وكُدت من جديد ، أو وكُدت مجدداً على حسب وصفهم هم . وهكذا فإنهم جميعاً وضعوا الأهمية على اجتماعات الصلاة العامة المشحونة عاطفياً ، حيث يكون هناك مبشر بارز يناضل هناك فى تلك اللحظة ؛ لكى «يكسب الأرواح من أجل المسيح» بقوة فصاحته . وكان جوناثان إدواردز هو المثال الأمريكى الرائد على هذا النمط ، وعلى الرغم من أنه لم يتخل أبداً عن القدرة بشكل كامل فقد طورها إلى مفهوم أكثر تفاعلاً . إذ كان إدواردز ، بقدر ما كان مبشراً مؤثراً ، فيلسوفاً ولاهوتياً عظيماً أيضاً ، وعين رئيساً لجامعة پرنتون قبل موته بوقت قصير .

وفى زمن الصحوة الأولى كان الفرق بين أرمنية ويسلى المعدلة وكالفينية

هو ايتفيلد وإدواردز المعدلة قد بات نظرياً أكثر منه عملياً . وفى كل من الحالتين كانت النظرية هى أن ما يهم هو استجابة الفرد إلى التبشير بكلمة الرب . وسواء كان مقدراً له أن يقوم بهذه الاستجابة ، أو أنه قام بها بدافع من اختياره الحر ، فإن ذلك لم يحدث سوى فرق قليل فى المحصلة العملية ؛ إذ إنه كان يتنقل ، أى يتحول ، صوب الإيمان . وكانت أهمية هذه الفكرة هائلة ؛ لأنها كانت تعنى أن الفرصة للخلاص متاحة لكل واحد . وكانت المسيحية البروتستانتية قد صارت طريقاً عالمياً إلى الخلاص ، ولم تعد قاصرة على نخبة مقدرة سلفاً ، وكان يمكن التبشير بها فى أوساط «الهنود الحمر المتوحشين» ، كما كان يمكن التبشير بها بين العبيد الأفريقيين ، ولم يعد الخلاص محفوظاً للرجل الأبيض نظرياً . وفى عملية الخلاص مرّ مفهوم الشعب المختار بثورة ، بيد أنها كانت أبطاً كثيراً مما كان ينبغى لها ؛ لأن العادات القديمة ماتت بصعوبة فى هذه المنطقة مثلما يحدث فى أى مجال آخر . والتوسع النظرى لمفهوم الشعب المختار باعتناق المسيحية لم يغير عادة اعتبار الاختيار أساساً ، حقاً محفوظاً للجنس الأبيض .

والواقع أنه ، كما حدث غالباً قبل التاريخ المسيحى ، كانت هناك فكرتان متصارعتان ، هما فى هذه الحالة القدرية والأرمنية «نسبة إلى جاكوبوس أرمنيوس» تعيشان جنباً إلى جنب ، بل إنهما تتطابقان أحياناً داخل الشخص نفسه . من الأسهل التعامل مع الناس المنطقيين ، ولكنهم غالباً ما يضمرون أفكاراً لا يمكن التوفيق بينها بصورة تبادلية وبرباطة جأش (ولكنهم لا يتسرعون أبداً فى توجيه الشكر إلى الشخص الذى يبرز هذا) . وفكرة أن «المختارين» يشكلون كل المؤمنين فى جميع أنحاء العالم كانت تتعايش مع الفكرة (التي لا يمكن التوافق معها فنياً) القائلة بأن المختارين هم الأمة الإنجليزية أو الجنس الأبيض ، ولا سيما ذلك الجزء من الجنس الأبيض الذى ينتمى إلى الطبقات الوسطى والعليا . وكان هذا يميل بالحثم تجاه وضعية من الدرجة الأولى و وضعية من الدرجة الثانية بين من ينالهم الخلاص - كان أصحاب الدرجة الأولى أفراداً مختارين داخل الأمة المختارة . وكان ذلك زمناً كان فيه التدرج الدقيق فى المكانة الاجتماعية يلقى قبولاً عاماً باعتباره جزءاً من النظام الطبيعى . إذ لم تكن هناك فقط عربات سكك حديدية

من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، ولكن معظم الناس كانوا يعرفون بالغريزة أية طبقة تناسبهم، وكان لا يريحهم السفر في الدرجة الخطأ، سواء كانت عالية أو متدنية بالنسبة لهم. ولهذا كان التمييز في الواقع بين الكنيسة المحلية المنشقة - التي تعنى الخارجين ولا سيما الميثودية - والتي تشغل مكانة اجتماعية أدنى «الكنيسة» التي كانت تعنى الأنجليكان. وفي الدين مثلما هو الحال في كثير غيرها، كانت المكانة الاجتماعية تقاس ضمناً في انجلترا بمدى «المسافة من التاج»، والذي كان من يرتديه، تحديداً، هو قمة الهرم الطبقي.

لقد كان لا بد لشعب العهد القديم أن يولدوا فيه؛ لكي يكونوا هم الشعب المختار. وكان من الممكن أن يصير المرء يهودياً إذا ما اعتنق اليهودية، بيد أن ذلك لم يكن أمراً سهلاً وكان نادراً للغاية. وفي ظل الانصهار الكامل بين الكنيسة والدولة بعد «هنري الثامن»، كان كل مواطن إنجليزي يفترض أنه مسيحي أنجليكاني في عرف قانون البلاد. وفي هذا الصدد لم تكن مكانة غير الإنجليز واضحة بالمرّة. ففي أيرلندا مثلاً، كانت عضوية كنيسة انجلترا - التي أعيدت تسميتها الآن كنيسة أيرلندا - تكاد تكون محصورة تماماً في نطاق أولئك الذين ينحدرون من أصول إنجليزية. ولم يخطر أبداً ببال «كرومويل» أن يحول الكاثوليك في دروغيدا أو ويكسفورد إلى الأنجليكانية بدلاً من اغتيالهم: فقد كانوا في نظره مثل الكنعانيين الذين اغتالهم بنو إسرائيل القدماء. وفي كل من ويلز وأيرلندا تم تأسيس الفرع المحلي من كنيسة انجلترا بالقانون، وهو ما كان يعنى أن من واجب كل المواطنين أن يدفعوا الضرائب الكنسية لها - أي العشور - أيًا كانت معتقداتهم الدينية. ولم يحدث في أيرلندا أو في ويلز أن كان لكنيسة انجلترا أتباع كثيرون. وتم تأسيس كنيسة أيرلندا سنة ١٨٧١م كجزء من عملية التخفيف عن الكاثوليك، كما كان تأسيس الكنيسة الأنجليكانية في ويلز سنة ١٩٢٠م كجزء من عملية مشابهة تحاول التخفيف عن المنشقين (والميثوديين بصفة رئيسية). والكنيسة الأسكوبية الاسكتلندية كنيسة أنجليكانية، ولكنها ليست مؤسسة وليست لها روابط مع كنيسة اسكتلندا وهي كنيسة بريستارية (ولكنها مؤسسة).

وإلى أن جاء الإنجيليون بمذهبهم البروتستانتي الذي يصلح عالمياً، لم يكن الأنجليكان أو البيوريتان (ولا الأنجليكان البيوريتان في الواقع) قد أظهروا اهتماماً كبيراً في العمل التبشيري. والواقع أن عملية تنصير الهنود الحمر في أمريكا الشمالية كانت حتى ذلك الحين قاصرة إلى حد كبير على البعثات التبشيرية الفرنسية والإسبانية الكاثوليكية، ولم يكن هناك ما يعادل سلسلة محطات البعثات التبشيرية الكاثوليكية التي كانت تمتد على ساحل كاليفورنيا، والتي أسسها المبشرون الفرنسيون الإسبان في القرن الثامن عشر (ولا تزال ذكرها عالقة في أسماء سان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، وسكرامنتو، وسان دييغو، وسانتا باربارا، وسانتا كلارا، وسانتا ماريا، وما إلى ذلك).

ولم يكن الاختلاف مجرد مسألة أسلوب أو شخصية؛ إذ إن البروتستانتية ذاتها كانت تمر بثورة شاملة، كانت أصولها متنوعة وغامضة إلى حد ما. وكان التحول في التركيز من القدرية على الإرادة الحرة مجرد جزء منها فقط، بل إن الأكثر أهمية كان هو التحول من العهد القديم إلى العهد الجديد. ومعها ذهب اهتمام أكبر وتأكيد أكثر على الأهمية الخلاصية للمسيح نفسه. وربما لا تكون مصادفة بحث أن أول ما ألهم «جون نيوتن» في اتجاه المسيحية الإنجيلية هي قراءته في كتاب «Imitation Of Christ»؛ إذ كان دعوة لقدسية الحياة، وهي دعوة صارت من خصائص المذهب الإنجيلي لا سيما في شكله الميثودي، ولكنها دعوة خلبت لب ويلبرفورس إلى حد كبير أيضاً. ومع الاهتمام المتجدد بالمسيح تدهور الاهتمام بالعهد القديم، مع تحول اتجاه الطريقة الكاثوليكية القديمة التي عرفت بها العصور الوسطى، في قراءة العهد القديم باعتباره نبوءة بقدوم المسيح نفسه، بدلاً من التبشير بالحوادث السياسية في حياة الأمم.

وتنسب «بربارا توخمان» في كتابها «Bible and Sword» إلى البيوريتان الإنجليز فضل إرساء أسس اثنين من المبادئ الرئيسية للمجتمع الغربي الحديث، الحكومة البرلمانية والحق في حرية العبادة. لكن الواقع أكثر ضآلة مما تشير إليه. فقد كان البيوريتان هم الذين شتقوا الكويكرز وجلدوا المعموديين، وكان

«كرومويل» هو الذى أمر رجاله المسلحين بالدخول إلى قاعة البرلمان لحله بالقوة، وهو بيوريتانى فى الأساس! . ونبذ البيوريتان الرحمة والعفو لصالح الخصائص الأكثر حرية فى العهد القديم: ولكنهم أيضاً مثل الإسرائيليين، حسبما تقول «توخمان»: كانوا يحاربون ضد الأعراب؛ لكى يؤسسوا أسلوباً جديداً للحياة. وهى تقتبس من مؤرخ القرن التاسع عشر الاقتصادى «وليم كتنجهام» الذى قال فى كتابه «Growth of English Industry and Commerce» سنة ١٨٩٦م إن «الاتجاه العام للبيوريتانية كان نبذ الأخلاق المسيحية وإحلال العادات اليهودية محلها». ويستمر فى القول بأن البيوريتان اتبعوا «خطاب قانون قديم بدلاً من الثقة فيما ينطق به الضمير الذى توجهه المسيحية». . وكان هناك بالتداعى تراجع إلى نمط أدنى من الأخلاقيات التى أظهرت نفسها فى الوطن وفى خارجه».

وتستمر «توخمان» فى القول: «على الرغم من أن البيوريتان لم يرفضوا العهد الجديد بأية حال، فإن بعض المتطرفين بينهم يرفضون ألوهية يسوع. وحتى البيوريتان المعتدلون ضمنوا فى التماسهم الألفى إلى جيمس الأول كأحد مطالبهم ألا يطلب منهم بعد ذلك فى الكنيسة أن ينحنوا عند ذكر المسيح. وفى جهدهم لتطهير الدين من الملابس والطقوس والشعائر وما إلى ذلك، عاد المتطرفون إلى الاعتقاد فى الرب الذى لا يمكن أن يشاركه أحد ألوهيته، وهو نفس الاعتقاد الذى يعبر عنه فى المعبد اليهودى: «اسمعى يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد».

كذلك ذكر «ماثيو أرنولد» فى كتابه «Culture and Anarchy»، أن المذهب البيوريتانى كان إحياءاً للروح العبرانية كرد فعل للروح الإغريقية التى حركت النهضة. وكان أثرها الدائم على الأمة الإنجليزية هو «إعطائها نصيباً قوياً من ثبات وإصرار وقوة العبرانيين. هذا التحول أوضح نفسه فى المذهب البيوريتانى، وكان له نصيب كبير فى تشكيل تاريخنا على مدى المائتى سنة الأخيرتين».

وليس هناك شك فى أن العهد القديم مفتوح على القدرة أكثر من العهد الجديد. ولكن كون المرء إسرائيلياً كان يعنى بالضرورة أنه من المقربين إذا ما قورن بواحد من الوثنيين. ويكون المرء إسرائيلياً بالميلاد. ولا يختار المرء أن يولد

هكذا، فقد كان ذلك اختياراً لصالحه ولم يكن اختياره. وهنا كان الاعتقاد اليهودي قريباً من القدريّة الكالفينيّة. ولم يكن هناك مبشرون يهود، كما كان الذين اعتنقوا اليهودية قلة قليلة. ولكن هناك دائماً يهود مارقون.

ولكن البروتستانتية الجديدة فيما بعد البيوريتانية، والتي نادى بها هوائتفيلد ونيوتن وويسلى وويلبرفورس قدمت إعادة اكتشاف للعهد الجديد. ومعها فكرة المذهب الإنجيلي - أى نشر الكلمة عن طريق التبشير بها، والبحث عن متصرفين جدد أينما يكونوا. وصارت الحدود المغلقة حتى ذلك الحين للشعب المختار مثل خيمة إبراهيم فى الصحراء مفتوحة من كل الجوانب للترحيب بالأغراب. وكان التبشير حتى ذلك الحين يتم أكثر بمصطلحات التحذير من الأشياء المرعبة التي سوف يفعلها الرب إذا لم يحسن الناس سلوكهم. ولم يكن هناك قدر كبير من الحب فيه، أو ما أطلق عليه الإنجيليون المحدثون فيما بعد «المتهم».

ومن ثم فإن أهمية المذهب الإنجيلي الذي نادى به هوائتفيلد وويسلى كانت هائلة بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية البريطانية. فبدون إعدادهم، لما كان لـ«ويلبرفورس» وطائفة الكافلام مثل هذا التأثير. لقد كان انتصار الإنجيليين الأنجليكان على الرق فى بداية القرن التاسع عشر هو الذى فتح حقاً أبواب التبشير المغلقة؛ إذ إن منع تجارة الرقيق صار بمثابة نقطة القفز للتوسع الثانى للإمبراطورية. فقد رأى البريطانيون أنفسهم كشعب نبيل بالقدر الذى جعلهم يحرمون التجارة فى الرقيق، وأنهم شرفاء بحيث استمروا فى عملية حصار بحرى لهذا الغرض على مدى أربعين سنة أخرى، وأنهم يضحون لدرجة أنهم فعلوا هذين الأمرين على نحو كبدهم نفقات جسيمة، وخلصوا من هذا إلى أنهم مناسبون بالتأكيد لحكم العالم وتعليمه دياتهم. والواقع أن مثل هذه الكلمات - نبيل، وشريف، ومستعد للتضحية - كانت هى بالضبط الدوافع التابعة من الضمير لأولئك الذين قاموا بالتوسع، واستوطنوا وحكموا الإمبراطورية. وفوق هذا وذاك كان ثمة إحساس بالواجب. وكان الأمر كما لو أن الإنجليز أحسوا بقناعة أنهم محظوظون؛ لأنهم من ذلك الجنس وتلك الأمة التى يدينون لها بدين، وكان هذا الدين كبيراً بحيث لا يمكن

الوفاء به مهما فعلوا، على الرغم من أنه تعين عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم. ولذلك كان الموت فى سبيل القضية لا يعد شيئاً استثنائياً: فالواقع أن كثيرين منهم تحدثوا عنه كما لو كان امتيازاً.

وحقيقة أن بعضهم أيضاً كوّنوا ثروات كبيرة أثناء العملية، وأنهم كانوا جميعاً على قناعة تامة بالتفوق الإنجليزى. دونما جهد. على كل جنس آخر. ويقول دافيد إدواردز فى كتابه «Christian England»: «فى النهاية، ساعدت الهيبة التى تحققت بواسطة هذه الانتصارات الأخلاقية الكبيرة ويلبر فورس ورفاقه الإنجلييين على فتح أفريقيا والهند أمام العمل التبشيرى المسيحى، الذى فهم على أنه نوع آخر من التحرير. وكان عليهم أن يركزوا فى البداية على سيراليون، التى أسسوها سنة ١٧٧٨م مستعمرة على الشاطئ، لمساعدة العبيد العتقاء. الذين يواجهون الفقر والإملاق أو الجريمة فى انجلترا. على الاستقرار فى أفريقيا كفلاحين وتجار. وكانت المستعمرة الصغيرة حول فريتاون تعاني مصائب عديدة، وتعرضت للتدمير الفعلى على أيدي فرقة عسكرية فرنسية سنة ١٧٩٤م، لكى يعاد بناؤها على يد «زخارى ماكولى» الذى كان على استعداد لأن يمضى خمس سنوات هناك حاكماً. وبقي الإنجلييون جامدين فى دعمهم حتى حدث أخيراً سنة ١٨٠٨م أن برهن العمل التبشيرى على أنه دائم وتم تأسيسه. ومع استخدام نهر عظيم هو ريو بونجاس. وفى السنة نفسها استولى التاج على المستعمرة. وتدرجياً انتشرت القناعة بأن البيض يدينون بشيء ما «للقارة الداكنة» بعد كل صنوف الرعب التى تسببت فيها تجارة الرقيق، وأن الإنجيل المسيحى كان من بين البركات التى تخص الرجل الأبيض، والتى ينبغى أن يشارك فيها الأفريقيون على الرغم من العنف الذى غالباً ما يواجههم، وعلى الرغم من المهانة التى خلفتها التجارة فى اللحم البشرى، وعلى الرغم من الأمراض القاتلة بما فيها الملاريا. وهذه البعثة التبشيرية قد زُرعت على التربة الأفريقية أثناء الحرب الكبرى ضد نابوليون».

والإصرار على المثل العليا وراء الجهد الاستعمارى البريطانى فى أفريقيا، تم توضيحه على يد الدكتور «ديفيد ليفينجستون»، أعظم مستكشف وتبشيرى فى

زمانه، وهو الذى كان يشارك الإنجلييين تماماً احتقارهم للرق . فقد كان واحداً من أشهر الرجال فى جيله، وهو مكتشف أعالى النيل، ومكتشف شلالات فيكتوريا وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم؛ إذ إنه كان رجلاً أحب أفريقيا والأفريقيين وكان محبوباً فى المقابل . لقد كان يريد أن يدخل بأفريقيا مضممار الحضارة، ولكنه لم يكن يريد غزوها . ولم يكن ليريد لها أن تُستغل وتُستنزف، ومع هذا فإنه كان مسئولاً بصفة رئيسية عن حقيقة أن ذلك كان مصيرها . وقد أعلن فى خطاب له بجامعة كامبريدج سنة ١٨٥٧م: «إننى أتوسل إليكم لتوجيه انتباهكم إلى أفريقيا . إننى أعلم أننى فى غضون سنوات قليلة سوف أكون معزولاً فى تلك البلاد المفتوحة الآن، فلا تتركوها لكى تغلق مرة أخرى . إننى أعود إلى أفريقيا لكى أحاول أن أصنع ممراً مفتوحاً للتجارة والمسيحية، فهل ستبحرون العمل الذى بدأته...».

ورحلة ليفينجستون الاستكشافية كانت مدفوعة بعاطفة لنشر الإنجيل وإنهاء تجارة الرقيق - وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا تربيته الكالفينية الاسكتلندية الصارمة، فربما تكون كلمة «مُساقاة» أقرب لوصف الرحلة . فقد اكتشف بسرعة، بغض النظر عن الإلغاء البريطانى للرق، أن الممارسة كانت منتشرة انتشاراً واسعاً، بل كانت مرضاً مستوطناً فى الواقع، وقد أطلق عليها وصف «جرح العالم المفتوح» . وكان تجار الرقيق عادة من العرب والسواحليين، وكانوا يجمعون حصيلتهم من العبيد باصطيادهم ببساطة(*) . كانت بعثة اصطياد الرقيق تقوم بدورة خلال الريف الأفريقى بحيث تأسر من يصلح وتقتل من لا يصلح، ثم يساق العبيد الذين تم القبض عليهم باتجاه الشمال أو إلى ميناء مناسب على الساحل . وفى بعض

(*) هناك دراسات عديدة عن قيام السفن الأوروبية بغارات على سواحل أفريقيا الغربية لخطف العبيد وشحنهم على سفن أوروبية إلى أمريكا الشمالية للعمل فى المزارع لا سيما مزارع الجنوب . ولا يمكن تبرئة تجار الرقيق العرب من دورهم فى منطقة القرن الأفريقى والشواطى الشرقية للقارة السوداء، ولكن الدور الأكبر لتجارة الرقيق بأعداد ضخمة كان من نصيب الحركة الاستعمارية الأوروبية والأمريكية . ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة «العبودية فى إفريقيا» تأليف عايدة العزب موسى، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٣ . المترجم .

الأحيان لاحظ «ليثينجستون» أن الريف الذى كان يسافر خلاله مع الحمالين العاملين فى خدمته، كان خالياً بشكل يثير الدهشة، ومن الواضح أنه قد تم إخلاؤه منذ وقت قريب. لأن الناس المحليين قد فرّوا للاختباء فى الغابات، مفترضين أنه لم يكن سوى واحد آخر من صائدى العبيد. أو تقوم قبيلة بالإغارة على أراضي قبيلة أخرى، وتأسر العبيد الذين تكون على استعداد لبيعهم إلى تجار الرقيق حينما يفدون فى المرة التالية. وقد اقتنع «ليثينجستون» بأن الرق لم يكن مجرد لعنة على القارة، فقد كان أيضاً مهماً من الناحية الاقتصادية باعتباره مصدراً للثروة والدخل. ومن ثم فإن القضاء على تجارة الرقيق يحتاج إلى اقتصاد بديل.

وقد تخيل أن الكلمات الثلاث الإنجليزية التى تبدأ بحرف C وهى التجارة والمسيحية والحضارة «Commerce, Christianity, Civilization»، يمكن أن تكون ذلك البديل. بيد أنه لم يكن بعيد النظر بالقدر الذى يكفى لأن يرى أن التجارة تعنى الاستكشاف والمتاجرة، التى تعنى السيطرة أجلاً أو عاجلاً، وكانت السيطرة بدورها تعنى الغزو. وفى النهاية كانت الطريقة الوحيدة لضمان القضاء على تجارة الرقيق هى جعلها تجارة غير قانونية وفرض القانون. وكان هذا يعنى الاستعمار.

ولكن حتى موت «ليثينجستون» سنة ١٨٧٣ م ظلت أفريقيا قارة مغلقة، القارة السوداء، أرض ملؤها صنوف من الرعب لا اسم له ووحوش خرافية. ولكن بدأت هناك فجأة وبصورة غامضة آنذاك ما يسمى «التدافع صوب أفريقيا» (وهى عبارة صُكّت سنة ١٨٨٤ م على ما يبدو) عندما قررت كل الأمم الأوروبية الكبرى، فى الوقت نفسه تقريباً، أن يكون لها نصيبها. ولكن أيّاً منها لم تكن أكثر اقتناعاً من البريطانيين بمهمتهم الإلهية. وكما يصفها «توماس باكنهام»:

«فى بريطانيا أخذ التدافع صوب أفريقيا بهدوء فى البداية. ثم كان هناك استياء متزايد تجاه المتطقلين. إذ كانت بريطانيا رائدة الاستكشاف والتنصير فى أفريقيا الوسطى، وأحست بأن لها حق ملكية على معظم القارة. وعلاوة على ذلك، كانت هناك مصالح حيوية لبريطانيا فى مهبط الخطر. وبوصفها القوة البحرية العظمى

الوحيدة، فقد كانت بحاجة إلى منع منافسيها من عرقلة طريق البواخر إلى الشرق عن طريق السويس ورأس الرجاء الصالح. وكان هذا يعنى العمل على كل من طرفى أفريقيا.

وكان فى بريطانيا الهرونستانتية، حيث بدا أن الرب وشيطان الجشع قد وجدًا ليخدم كل منهما الآخر، إن كلمات ليقينجستون ضربت أعمق الأوتار. إن الكلمات الثلاث التى تبدأ بحرف C هى التى كانت ستشفى أفريقيا.

ولكن أفريقيا لم تكن كافية، إذ كان الإنجليون يسلطون أنظارهم على الهند منذ زمن طويل. وحتى أواخر القرن الثامن عشر، حسبما يقول «ديفيد إدواردز»، كان من المفترض أن الإنجليز كانوا فى الهند -ببساطة- لجمع المال. والكلمة الإنجليزية «loot» (ومعناها غنيمة أو سلب) تأتى من الهند. كان الوجود البريطانى فى الهند قد حقق بالفعل لحظات من المجد. ولكن هذا تغير عندما صار جمع المال فى شبه القارة أكثر صعوبة. وشركة الهند الشرقية الإنجليزية، التى كانت بمثابة الحاكم النائب عن بريطانيا، حققت خسائر وبرهنت أنها غير قادرة على المنافسة، وحامت حولها شكوك كثيرة بالفساد (وهو الذى كان الرجال الإنجليز من أصحاب العقول السامية حتى ذلك الحين يظنون أنه نشاط قاصر على الأجانب). وقرب نهاية القرن الثامن عشر -إذ إن المحاكمة استغرقت عقدًا من الزمان- كان الحاكم العام على إقليم البنغال، وارين هاستنجز، قد اتهم أمام البرلمان بالفساد، وكان معارضه الرئيسى هو إدموند بوركى أشهر برلمانى فى زمانه. وقد فشل الادعاء، ولكن فى أثناء المحاكمة تصاعد الاهتمام فى بريطانيا بمستويات الإدارة البريطانية فى الهند (التي تدار عن طريق شركة الهند الشرقية)، وهى الإدارة التى ظهرت بصورة رثة تمامًا، ومن ثم فإنه بنهاية القرن كان البريطانيون فى حالة تدعوهم إلى رفع النغمة الأخلاقية فى حضورهم ونفوذهم. وكانت سياسة هاستنجز تقوم على ألا يتدخل فى العادات والثقافات المحلية، على الرغم من أنه كان قد أتاح الفرصة لمن يريدون المقاييس الإنجليزية للعدالة. هذا الرفض المتعمد للرقى العقلى فى الهند سرعان ما واجه تحديًا من الإنجليس الذين

قادهم مرة أخرى «ويلبرفورس» الذى كان الرقى العقلى بالنسبة له يلى الإيمان
بالرب . ويكتب «إدواردز» :

«إن الاعتقاد بأن الإنجليز كانوا فى الهند لممارسة وصاية وضعتها العناية الإلهية
فى أيديهم بطريقة غامضة بدأ يسود الآن . وقد لقى تشجيعاً كبيراً من الإنجلييين
الذين توغلوا فى حكومة الهند الجديدة . وكان أكثر هؤلاء تأثيراً هو «تشارلز
جرانت» ، الذى كان قد توجه إلى الهند سنة ١٧٦٧م ومرّ بتجربة اعتناق المذهب
الإنجيلي فى غمرة أحزانه بسبب وفاة ابنتيه الشابتين . . وصار ابنه المدرب جيداً
روبرت حاكماً على بومباي ، والروح التى حكم بها السير روبرت جرانت الهنود
تنضح فى كتابته ترنيمة عنوانها : «فلتعبدوا الملك المجيد فى الأعلى» ، والمقطعان
الأولان منها كما يلى :

فلتعبدوا الملك

المجيد فى الأعلى

ولتنشدوا بامتنان

بقوته وحبّه

درعنا وحامينا

قديم الوجود

سراذه سناء

ويطوقه الشناء

فلتحدثوا عن عظمته

وتغنوا برحمته

فتوبه الضياء

وعرشه الفضاء

وعربات غضبه

هى السحابات الرعدية الكثيفة

وممره مظلم

على أجنحة العاصفة

وليس هناك تسجيل لتأثير ذلك على السكان المحليين . وقد سار إداريون كبار آخرون على النهج نفسه ؛ فالحاكم العام اللورد «تيجنماوث» «لم يكن يخفى قناعاته الدينية» على حد قول إدواردز. وخليفته اللورد ويلسلى أعلن بوضوح أن انجلترا لها «وصاية مقدسة» تبرر ضم أو «إعلان الحماية» على جزء كبير من شبه القارة الهندية. وفي الوقت نفسه كان التصميم البريطانى على إصلاح المجتمع الهندى والأخلاقيات الهندية قد تزايد ؛ بسبب القصص المتداولة عن دعاية المعابد ، والمركبة الضخمة التى تسمى چوجرنوت التى كان المؤمنون بالإله كريشنا يلقون بأنفسهم تحتها لتسحقهم ، وأنشطة «الثوجيس - Thuggees» الذين كانوا يشنقون المسافرين قرباناً للإله «كالى» ، وفوق هذا كله عادة «الساتى - Sati» المرعبة ، أى الطقس الذى تحرق فيه الأرملة حية فى جنازة زوجها الراحل .

كانت هناك صرخة عندما رفضت شركة الهند الشرقية - التى كانت هى المسيطرة رسمياً - التدخل ، على أساس أن هذا التدخل يمكن أن يؤثر على أرباحها . وليست بنا حاجة إلى القول : إن النزعات الإنسانية للإنجيليين تشابكت بطريقة دقيقة مع رغبتهم فى نشر المسيحية الإنجيلية وإحساسهم بالتفوق والسمو على البشر الأدنى منهم . وهذا كله ، فى زمن كانت انجلترا تنزلق فيه بعيداً عن النزعة الدينية السائدة فى عصر الوصاية على العرش ، إلى العصر الفيكتورى الأكثر تطهراً ، والإنجيليون يتربعون فوق القمة فى خيلاء وغرور .

وحتى ذلك الحين ، كان نشاط الإرساليات التبشيرية البروتستانتية فى الهند قد ترك بشكل أساسى إلى اللوثريين الألمان ، تشرف عليهم الجمعية الأنجليكانية لتحسين المعرفة الإنجليزية ، كما كانت مرتبات القساوسة تدفع من شركة الهند

الشرقية . وفيما عدا هذا لم تكن الشركة ترى نفسها رأس معبر مسيحي إلى الهند الهندوسية ، كما أن موظفيها لم يكونوا يريدون أن يعظهم أحد بشأن أخلاقياتهم وعاداتهم . وصارت العلاقات الجنسية غير المنتظمة مع البنات المحليات أمراً معتاداً ؛ مما أدى على مر الأجيال إلى جمهرة متزايدة من الناس من أصول مختلطة عرقياً ، لم يكونوا يعتبرون هنوداً حقاً ولا إنجليزاً خالصين .

ولكن حينذاك اقتربت سنة ١٨١٣ م ، حينما حان وقت مراجعة ميثاق شركة الهند الشرقية ؛ ورأى الإنجليزيون بقيادة «ويلبر فورس» فرصتهم في ذلك . ويستمر «إدواردز» في سرد القصة :

«وإذا كان ذلك متوقعاً ، قام أحد قساوسة الشركة ، وهو كلاوديوس بوشانان ، بتكريس نفسه للدعاية لصالح كل من العمل التبشيري و «مؤسسة كنسية هندية» أكبر كثيراً لتحويل الإنجليز الذين ليس لهم رب ، وعندما جاءت سنة ١٨١٣ م اغتتم الإنجليزيون الفرصة لضمان حق الدخول إلى الهند ، ليس فقط للتجار الذين ليسوا أعضاء في الشركة ، وإنما أيضاً للأشخاص الذين يرغبون في دخولها «بغرض تنوير الهنود وإصلاحهم» . . . ولكي يقود القساوسة الذين كانت شركة الهند الشرقية ما تزال تعينهم ، ولممارسة نفوذ غير محدود على أية بعثات تبشيرية أخرى ، كان لا بد من تعيين أسقف في كلكتا ومعه ميزانية وافية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني في السنة ، مع ثلاثة من معاونين» .

وقد تم تعديل الميثاق نفسه لكي يعطى الوجود البريطاني في الهند الغرض الأخلاقي السامي الذي اضطرت الشركة إلى الاعتراف به بإعلانها : «إنه واجب على بلادنا أن تحسن مصالح وسعادة السكان الوطنيين في الممتلكات البريطانية بالهند ، ومثل هذه الوسائل ينبغي أن تكون مستخدمة بقصد تقديم المعرفة المفيدة والتحسين الديني والأخلاقي لهم» .

وأعلن ويلبر فورس وهو يخاطب مجلس العموم في جدل حول الميثاق الجديد أن «المسرحية تفترض شخصيتها الحقيقية . . . عندما تتولى حماية أولئك الفقراء المحرومين الذين تنظر إليهم الفلسفة من عليائها بازدراء» . ووعده بأن النشاط

التبشيري مستقبلاً في الهند لن يحاول أن ينشر الإنجيل بالقوة. «الإجبار والمسيحية؟ لماذا يختلف هذان المصطلحان بالذات كل منهما مع الآخر؟ لأنه لا يمكن التوفيق بين الفكرتين. وفي لغة الإلهام نفسها، تمت تسمية المسيحية قانون الحرية».

هكذا كانت شخصية الإمبراطورية الرومانية الجديدة التي تأسست عند بداية القرن الذي صعدت فيه وازدهرت بحيث وصلت القمة، على حين صارت الهند جوهره التاج الإمبراطوري. وكان «الراج»، وهو الاسم الذي صارت الإدارة البريطانية في العهد الفيكتوري تُعرف به، له جاذبية إنجليزية خاصة. وكان هناك استياء، بل وكان هناك في الواقع عصيان مسلح في الجيش سنة ١٨٥٧-١٨٥٨م عندما بدا أن الإصلاحات الغربية (وبعضها بوحي من المسيحية) قد باتت تشكل خطراً شاملاً على الثقافة الهندية. بيد أن العلاقة كانت لها جوانب إيجابية كثيرة من وجهة النظر الهندية. فقد كان المثقفون الهنود على نحو خاص مشدودين إلى دراسة القانون الإنجليزي. وحقيقة أن الإنجليز كانوا مسيحيين - اسمياً على الأقل - لم تؤد إلى الانتشار الواسع للديانة، ولكنها كانت تعنى بالفعل أن الإنجليز البروتستانت كانوا مجهزين جيداً للسيطرة على الحلبة في كثير من النزاعات المختلفة بين القبائل والديانات في الهند - الهندوس والبوذيين والمسلمين والسيخ واليهود واليانسيين والمسيحيين السوريين وغيرهم - وهي نزاعات كانت دائماً حبلية باحتمالات العنف.

وعلى وجه الإجمال كان المسلمون يفضلون حكومة بريطانية للهند عن حكومة هندوسية، والعكس صحيح تماماً. ومع هذا فإن الحياة في الهند كانت تبدو وكأنها فقط تشجع في الإنجليز أنفسهم إحساساً بتفوقهم، وهو إحساس كان يظهر بين الحين والحين في تجليات عنصرية مشبعة بالاحتقار والازدراء. وكان هذا وثيق الصلة بوعى طبقي متطرف كان يناسب تماماً النظام الطبقي الهندوسي، وهو نظام كان - لأسباب لا علاقة لها بالعنصرية الأوروبية البيضاء - يضع أصحاب البشرة الفاتحة فوق قمة هيراركية دينية واجتماعية، على حين يضع ذوى البشرة الداكنة في قاعها.

والانحيازات التي تسمى الآن عنصرية كان لا بد وأن تبدو لأولئك الذين تمسكوا بها مجرد جزء صحيح من الوعي الطبقي. وكان لا بد للإنجليز في ذلك الزمان من أن يعتبروا الجنس نظاماً يحل محل الطبقة، وكلاهما لا بد أن يكون محكوماً بالافتراضات عن العرق والدم. وقد أعطى هذا موضوعية ودواماً للتدرج الطبقي. وكانت تلك صيغة مُعدلة من القدرية. فإن يكن المرء «طيب المولد» فهذا يعني أن يكون مباركاً في الحياة بشخصية أخلاقية يمكن أن يعترف بها الآخرون ممن نعموا بـ «حسن المولد». ولم يكن الفقراء فقراءً فقط؛ لأن الرب أراد أن تكون لهم هذه المكانة: وإنما ولدوا لكي يكونوا فقراءً، ولم يولدوا لكي يكونوا من الطبقة الراقية. لقد كان ذلك في دمائهم. (ليس هناك بطبيعة الحال أساس علمي لهذا؛ لأن دماء الطبقة الراقية هي دماء الطبقة الدنيا نفسها). ويحفل الأدب الفيكטوري بأمثلة حيث يتفوق المولد الحسن على النقائص الاجتماعية، وأشهرها رواية «أوليفر تويست» لـ «تشارلز ديكنز». وحتى في القرن الواحد والعشرين، فإن عدم حب الطبقة العاملة الإنجليزية لأولئك الذين «يتعالون على مكانتهم» لم يختلف تماماً؛ إذ إن الإنجليز ما يزالون يمايزون فيما بين أنفسهم على أساس اللهجة، مثلاً، التي هي أكثر ما ينبئ عن العلامات المميزة للطبقة بطرق عديدة أقوى من الجنس كثيراً. ومفهوم «الدم» إلى جانب مفهوم «الأصل» قد برهنا على أنهما راسخان بدرجة مدهشة، على الرغم من حقيقة أن أي اقتراح بشأن الأساس الحقيقي لهما قد صار منذ زمن طويل مهجوراً.

والجماعات المغتربة تكون محافظة بالضرورة. وكان الإنجليز تحت حكم الراج رجعيين بدرجة خطيرة، كما أن سلوكهم تجاه السكان المحليين - السخرية التي كانوا يكتونها تجاه الهنود «الذين حاولوا أن يكونوا إنجليزاً» كانت لا تصدق - تسبب في درجة من الاستياء بحيث إنها في النهاية أطاحت بالإدارة الإنجليزية (الراج) تماماً. وأحد الأفعال الطائشة الأخيرة - ولكنها ليست الأكثر طيشاً، للغطرسة التي مورست على الجمهور الهندي الذي كان حنقه وجموحه يتصاعدان - كان ذلك الذي أعقب مذبحة أرميستار سنة ١٩١٩ م، وقد يصلح تلخيصاً لمواقف البريطانيين طوال عصر الراج، الذي كان قد تحجر آنذاك.

إذ إن اضطراباً وطنياً خطيراً فى أرميستار - وهى مدينة فى إقليم البنجاب - استمر عدة أيام عندما قام الجنرال «ماجور داير»، القائد البريطانى المحلى، بإصدار الأوامر إلى قواته بفتح النار على جمهور كبير من المتظاهرين، فقتلوا ما بين خمسمائة وألف شخص، وكان تكتيكة بغرض إظهار الصرامة البريطانية تجاه الهنود المهيجين؛ والواقع أن أساليبه تلك أظهرت الاحتقار البريطانى للهنود بشكل عام. وفى الأحداث التى سبقت هذه المجزرة، كانت مبشرة مسيحية، اسمها «مارشيا شيروود»، كان قد تم توقيفها من جانب جماعة من الغوغاء يصيحون: «اقتلوها، إنها إنجليزية» وأسقطوها من على دراجتها. وعلى الرغم من أن صيحة واحدة من الحشد انطلقت «لا، إنها واحدة من شعب الله المختار تعلم أطفالنا وتؤدى عمل الرب»، فإن الهجمات عليها ازدادت جنوناً بحيث باتت حياتها معرضة للهلاك. وفى نهاية الأمر تم إنقاذها على أيدى الهنود الأصدقاء، وتم إخفاؤها عن الغوغاء، ونقلها بعد الظلام إلى مكان آمن.

وإذ سمع الجنرال «داير» بهذه الإهانة التى لحقت بامرأة إنجليزية بريئة، أعلن أن الحارة التى حدث فيها الهجوم ستكون أرضاً مقدسة. ولكى يفرض على الجماهير الهندية أهمية احترام النساء البيض أمر الحراس البريطانيين - والحراب مثبتة فى بنادقهم - أن يقوموا بدوريات فى الحارة التى وقع فيها الهجوم، ثم أعلن أن أى هندي يريد أن يمر من الحارة - التى كان طولها حوالى مائة وخمسين ياردة - عليه أن يزحف على بطنه فى التراب (وكانت قدرة جداً مع الكميات الكبيرة من مخلفات الناس). هذه المهانة لحقت بمئات من الهنود الأبرياء، وبينهم عدد ممن ساعدوا على إنقاذ حياة الأنسة «شيروود». وتمت إقامة تصليبة خشبية فى المنتصف، وحوكم ستة من الشباب - ربما كانوا وربما لم يكونوا من الغوغاء الذين هاجموا المرأة - وتم جلدهم علناً، وصارت حكاية «حارة الزحف» شائعة فى كل أنحاء الهند وجميع أرجاء الدنيا، وكان بسببها وكذلك بسبب إطلاق النار بشكل متهور على المتظاهرين أن أعفى «داير» من منصبه بأوامر من حكومة لندن. وكانت الجمهرة الإنجليزية فى الهند متضامنة فى تأييدها له واستشاطوا غضباً لطرده، فقد كانوا يظنون أن فكرة «حارة الزحف» فكرة صائبة بشكل فريد.

هكذا سخر الراج فى النهاية من حلم ويلبرفورس الإنجيلى بـ «هند» مسيحية إنسانية، وربما كان إخفاق هذا الحلم راجعاً إلى أحد تفاصيل حياة ويلبرفورس نفسه لم يمارس بشأنها النقد الذاتى بشكل كاف- وهو إيمانه بالامتياز والثروة والحسب والنسب- باعتبارها جوانب مقدرة من الرب فى البناء الاجتماعى والطبقى الإنجليزى. ومثلها مثل أى شىء، أدت هذه الرذائل الإنجليزية الكبرى إلى سقوط الراج، مثلما أدت بالفعل إلى تحويل السكان المحليين الوطنيين ضد المستوطنين البيض وحكامهم الاستعماريين فى جميع أنحاء أفريقيا وفى كل مكان آخر. وربما يرضى شعب ذو كبرياء بأن يُحكم، ولكنه لا يرضى أن يكون الثمن الإهانة والتحقير.

ومع هذا فإن الهند جنت الكثير من الوجود البريطانى، وراقت لها اللغة الإنجليزية، وحققت الديموقراطية البرلمانية، وأعجبتها لعبة الكريكت، كما حققت حكم القانون الذى استمر وازدهر، على الرغم من الصعوبات الهائلة فى بعض الأحيان. وسيكون من المستحيل تحديد «هوية هندية» لم تأخذ فى اعتبارها تمامًا هذا الميراث البريطانى- ولا سيما اللغة الإنجليزية أساسًا- بما فى ذلك التجربة التكوينية المتمثلة فى خلع ذلك النير الاستعمارى فى خضم معركة أخلاقية أساسًا، كسبها الجانب الذى كانت لديه الأسلحة الأفضل. وقد تمت إلى حد كبير دونما إراقة الدماء (على الرغم من أن دماء كثيرة أريقت فى الصراع المرير بين المسلمين والهندوس فى زمن الاستقلال). وإلى حد كبير تخلوا عن (أو كانوا مجبرين على التخلّى عن) الملامح الأكثر بربرية فى المجتمع الهندوسى التى كانت جرس إنذار للفيكتوريين الأوائل، مثل حرق الأرامل (الساتى). وعلى الرغم من أن المسيحية كديانة رسمية لم تحقق سوى نجاح قليل، فإن كثيرًا من القيم التى استمدتها الاستعماريون من المسيحية وطبقوها فى الهند تم استيعابها بنجاح. وكانت المدارس المسيحية ناجحة بشكل خاص فى أوساط الطبقات العليا من الهندوس. وربما كان ويلبرفورس أكثر نجاحًا مما كان يبدو فى البداية؛ إذ إنه أصلح السلوك الهندى. كما أن الديانة الهندوسية- فى الوقت نفسه- قد برهنت مرة أخرى على عبقيرتها فى التعلم من الاتصال مع الثقافات والنظم الأخرى، محافظة على أصولها الجوهرية على حين توائم ممارساتها.

وكان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطاً بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار. ففي الشئون الدولية كان لهذا جانباً؛ فقد كانت حالة «إن من يتحدى الرب يتحدى إنجلترا» أو حالة «إن من يتحدى إنجلترا إنما يتحدى الرب». وكانت الحروب النابوليونية مثلاً صارخاً على الحالة الثانية؛ إذ إن إنجلترا وجدت نفسها الأمة القائدة التي لديها نموذج ملكي وأرستقراطي للمجتمع، وهو نموذج رفضه الفرنسيون باعتبار النظام القديم. وكان هدف نابليون أن ينشر الأفكار الثورية الفرنسية في جميع أمم أوروبا من خلال النفوذ السياسي، ومن خلال الإرهاب العسكري ومن خلال الغزو. ولأن الاعتقاد كان سائداً بأن العناية الإلهية حاسمة في مثل هذه الأمور، فإنه كان ينبغي لبريطانيا أن يكون الرب في جانبها لكي تتمكن من هزيمة نابليون. وقد أحست إنجلترا أن عليها واجباً يقضى بأن تستخدم قوتها العسكرية في الدفاع عن شكل من الحكومة يعتبره الإنجليز شكلاً قدره الرب. هذه هي الحجة التي أشرنا إليها من قبل والتي استخدمها أسقف «دورهام» للقضاء على تجارة الرقيق، وكانت تستخدم بانتظام في سياقات أخرى.

والمبدأ المقابل «إن من يتحدى الرب يتحدى إنجلترا» - كان أحد العوامل التي تسببت في نشوب حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦ م) التي وضعت بريطانيا وفرنسا والإمبراطورية العثمانية ضد روسيا من أجل السيطرة على موانئ البحر الأسود. وكانت المسألة الرئيسية هي الرغبة الروسية في أن تصبح حامية الحقوق الدينية للمسيحيين، والأرثوذكس خاصة، من رعايا الدولة العثمانية (المسلمة). وكان هذا يعني أن روسيا ستكون القوة المهيمنة في الأراضي المقدسة، وسيكون بمقدورها أن تسيطر على الأماكن المقدسة، والمواقع والمزارات التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس وليس فقط تلك الموجودة في القدس، وهو ما كان بمثابة إنذار للبريطانيين الهروتستانت.

ولأن روسيا كانت تعارض المصالح البريطانية على اتساع العالم، وأيضاً لأن الفكرة الشائعة عنها أنها كانت متخلفة وخاضعة لحكم مستبد، كانت هي البطة

السوداء المفضلة لدى الصحافة البريطانية . إذ كان التهديد الروسى بالسيطرة على فلسطين ، أو على الأقل تلك الأجزاء والأماكن التى تخص المسيحيين فى فلسطين ، يُعتبر تهديداً مباشراً للمصالح البريطانية ، التى كانت بداهة بالنسبة للرجل الإنجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر ، هى مصالح الرب . ومن الغريب أنهم لم يهتموا كثيراً بأن بلداً مسلماً يحكم فلسطين ، كما أن فرنسا ، برغم كونها كاثوليكية ، كانت مقبولة حارسة للأماكن المقدسة أكثر من روسيا (ولم يكن هذا يعنى أن الإنجليز قد صاروا متساهلين مع المذهب الكاثوليكي ، فقد كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك) . ولكن البريطانيين كانوا يتوددون بلطف إلى الحكام العثمانيين ، واضعين نصب أعينهم الاستيلاء تدريجياً على فلسطين (كما كانوا قد استولوا على مصر تدريجياً) . ولم تكن روسيا جزءاً فى خطة مثل هذه .

ثم حدث فى زمن أقرب إلى العصر الحالى ، أن كان الصراع غالباً ما ينشب بين الطائفتين المسيحيتين اللتين اعتبرتا أنفسهما مسئولتين عن حماية الأماكن المقدسة - الروم الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك . واندلعت منازعات كبيرة ، على حين كانت المجادلات بشأن الأحقية والأسبقية تتحول إلى العنف أحياناً . وبعض الأماكن ذات القداسة فى الأرض المقدسة مثل الضريح المقدس الذى يقال إن يسوع قد دُفن فيه ما بين الصלב والقيامة كانت تحت إدارة مشتركة ، والبعض الآخر مثل كنيسة المهد كانت أرثوذكسية أساساً ، وبعضها كانت تحت السيطرة الكاثوليكية . وكان الرهبان الفرنسيون يعينون من قبل البابا . (ومع نهاية القرن التاسع عشر ، وبفضل الخرائط البصرية التى أعدها الجنرال جوردون ، صار للبروتستانت واحد على الأقل من الأماكن المقدسة التى تخصهم ، وهى ما تسمى «مقبرة الحديقة» التى زعم «جوردون» أنه اكتشفها بملاحظة أن أحد الخطوط الكتتورية على خريطة القدس كان يبدو وكأنه على شكل جمجمة . وبحيلة غريبة ، صار الجيش البريطانى هو المسئول رسمياً عن وضع خرائط فلسطين تحت الحكم التركى . وإذا كانت تبدو مقبرة أشبه بالكتاب المصور منها بالضريح الواضح ، كانت تحظى بشعبية خاصة لدى السائحين الأمريكيين . كان «جوردون» بروتستانياً مخلصاً ، وكان نجاحه فى الكشف عن «المقبرة الحقيقية» ، بالنسبة للإنجيليين فى العصر

الفيكتوري، هو الدليل الذي كانوا بحاجة إليه على موافقة الرب عليه وعلى الأمة البريطانية).

وهكذا فإن السماح للروس بأن يتولوا مسئولية الإشراف على فلسطين كان سيشكل تهديداً خطيراً على الرهبان الفرنسيين، الذين كان البريطانيون يفضلونهم في هذه المناسبة. وحسبما تقول بربارا توخمان في كتابها «Bible and Sword»: «كان النزاع على الأماكن المقدسة الذي تسبب في حرب القرم من أكثر الأسباب سخافة في نشوب حرب كبرى على مر التاريخ». ولكن حسبما توضح هي أيضاً، فإنه يدخل ضمن السياق الأكبر للخطط البريطانية طويلة المدى في فلسطين لكي تساعد على ترحيل اليهود إليها، وهي رغبة بلغت ذروتها في إعلان بلفور ١٩١٧م والانتداب البريطاني بعد ذلك بوقت غير طويل.

كان وريث التراث الإنجيلي لـ «وليام ويلبرفورس» هو اللورد «شافتسبري»، المعروف في الجزء الأول من حياته باسم اللورد «آشلي». وكان واحداً من أكثر السياسيين تأثيراً في زمانه - وقيل إن الأساقفة كانوا غالباً ما يعينون بناء على مجرد توصية شخصية منه إلى رئيس الوزراء. وشن حملات بلا كلل لمعارضة الحركة الأنجلو- كاثوليكية في كنيسة إنجلترا، بل إنه جعل البرلمان يحرم بعض الممارسات الطقوسية مثل رسم علامة الصليب، والتي كانت مرتبطة حتى ذلك الحين بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكانت قناعته بأن الإنجليز هم شعب الله المختار راسخة قوية، كما أنه تأثر بالتصاعد في التوقعات الألفية - بين الإنجيليين الإنجليز في الجزء الأخير من العصر الفيكتوري، وهي مزيج حاذق من نبوءات مختلفة مأخوذة من سفر دانيال ورؤيا يوحنا وغيرهما، وكان الشائع على نطاق واسع أنها تحدد شروطاً بعينها ستكون ضرورية قبل حدوث الحادثة الألفية - أي عودة المسيح.

ويرجع اهتمام البروتستانت بتنصير اليهود إلى القرن السابع عشر، حينما قابل المنفيون اليهود الإنجليز في أمستردام، وتأثروا بإخلاصهم في أسلوب حياتهم لتعاليم العهد القديم. وتحت حكم «أوليفر كرومويل» تم رفع المرسوم

الذى صدر فى العصور الوسطى بمنع اليهود من دخول انجلترا، وشوهدت أول مجموعة صغيرة من اليهود فى لندن. وحتى فى ذلك الوقت، كان أحد الأسباب فى تشجيع اليهود على القدوم إلى انجلترا هو تنصيرهم، وذلك تلبية لأحد الشروط الضرورية للمجىء الثانى المسيح.

وكان «شافتسبرى» يشارك فى هذه الرغبة، بل إنه كان يلبس خاتماً ذهبياً منقوشاً عليه كلمات تقول: «صلوا من أجل سلام القدس». ولكنه كان يرى الأمرين - عودة اليهود إلى فلسطين، وتحويل اليهود إلى المسيحية - يحدثان سويًا. ومن ثم فإن رغبته المضطربة فى أن تفرض السياسة الخارجية البريطانية عودة اليهود، ودعمه القوى أيضاً لفكرة إقامة أسقفية فى القدس، حيث يمكن لكنيسة انجلترا أن تقوم بتنصير اليهود. كان هذا هو الامتداد المنطقى لجمعية «نشر المسيحية بين اليهود» التى أقامها الإنجلييون فى لندن، والتى يرجع تاريخها إلى زمن «ويلبر فورس».

وتقول «بربارا توخمان» عنه: «مثل كل الرجال الذين تستحوذ عليهم عقيدة مكثفة، أحس اللورد شافتسبرى بلمسة الرب القوى على كتفيه، بأنها توصية بأن يعمل هو شخصياً من أجل «الحادث العظيم». وبصحبة فيكتوريين كبار آخرين لم يساوره الشك أبداً فى أن الأدوات البشرية يمكن أن تحقق الأغراض الإلهية...»

فقد كان الشك الذى ميّز القرن الثامن عشر قد أفسح الطريق أمام التدين الفيكتوري، وعادت عقلانية القرن الثامن عشر تستسلم من جديد أمام الوحي. وكضرورة لازمة لعودة النزعة العبرانية، نجد اللورد «شافتسبرى» يؤيد إقامة إسرائيل... وعندما يرجع المسيحيون إلى سلطة العهد القديم كانوا يجدون أنه يتنبأ بعودة شعبه إلى القدس، ويجدون أن من الواجب عليهم المساعدة فى تحقيق هذه النبوءة».

والواقع أن العهد القديم، والعهد الجديد يتنبآن بهذا. وهكذا، فإن نقطة كون انجلترا الشعب المختار لم تكن تعنى فقط أن لديهم حضارة أسمى وديانة أرقى جعلتهم يشعرون أن من واجبهم أن يشركوا فيها من هم أقل حظاً؛ وإنما كانت أيضاً بالنسبة للإنجلييين الذين كان لهم نفوذهم فى السياسات الإنجليزية، أمراً لا يقل عن

تحقيق نهاية الزمان وبداية حكم الرب. وربما تكون إسرائيل القديمة عصا الخلاص في الأيام الباكرة قبل المسيح، بيد أن هذه العصا مودعة الآن في لندن بالتأكيد.

ترى ماذا كانت تلك النبوءات التي أثرت على الأحداث بمثل هذه القوة؟ إذا ما وضعنا في اعتبارنا أنها كانت أدوات استخدمت في إعادة اليهود إلى أرض تسمى الآن إسرائيل من جديد، فإن هذه النبوءات تستحق دراسة أكثر تأنيًا. حتى على الرغم من أن البحوث والدراسات المسيحية الحديثة - خارج نطاق دوائر الأصولية الأمريكية الضيقة التي تستوعب ذاتها.

وكل من العهد القديم والعهد الجديد غنيان في المادة التي تتنبأ بنهاية العالم، ومن ثم، فإن هناك مزيجًا لا يستهلك من نصوص النبوءات التي يمكن استحضارها سويًا للتنبؤ بشيء في المستقبل. ولا بد أن قرأء الكتاب المقدس في القرن التاسع عشر كانوا سيستطيعون أن يميزوا هذه النصوص على الأقل، حتى ولو لم يفهموها تمامًا:

«وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدًا وملكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد» (دانيال ٢ : ٤٤).

«والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي. ملكوته ملكوت أبدى وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون» (دانيال ٢٧: ٧).

«وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبنى شعبك ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت ينجي شعبك كل من يوحد مكتوبًا في السفر. وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور.

أما أنت يا دانيال فاحفظ الكلام واختتم السفر إلى وقت النهاية. كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد» (دانيال ١٢ : ٤-١).

«ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم . ثم يأتى المنتهى ، فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس . ليفهم القارئ» (إنجيل متى ٢٤ : ١٤-١٥).

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر . لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء . إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم . وهكذا سيخلص جميع إسرائيل كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب . وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزلت خطاياهم» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١١ : ٢٥-٢٧).

«وتكون علامات فى الشمس والقمر والنجوم . وعلى الأرض كرب أمم بحيرة . البحر والأمواج تضج . والناس يغطى عليهم من خوف وانتظار ما يأتى على المسكونة ؛ لأن قوات السموات تتزعزع . وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً فى سحابة بقوة ومجد كثير . ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب» (إنجيل لوقا ٢١ : ٢٥-٢٨).

«ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده . فقبض على الثنين الحية القديمة الذى هو إبليس والشيطان وقبده ألف سنة وطرحه فى الهاوية وأغلق عليه وختم عليه حتى لا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لا بد أن يحلّ زماناً يسيراً .

ورأيت عروشاً فجلسوا عليها وأعطوا حكماً ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة» (رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢٠ : ٤-١).

[وهذا هو مصدر كلمة «الألفية» التى لم تكن تشير أصلاً إلى تواريخ بأرقام ذات ثلاثة أصفار ، ولكن إلى حكم الألف سنة للمسيح بعد مجيئه الثانى] .

وهكذا حشد «شافتسبرى» التأييد لعودة اليهود إلى إسرائيل . وتلخص «بربارا

توخمان» طموحاته على أنها كانت من أجل «إسرائيل أنجليكانية تعيد بناءها انجلترا الهروتستانتية، وفي ضربة واحدة تزعج البابوية وتحقق النبوءة، وتضمن خلاص البشرية».

وليس هذا إحياء بأن كل سكان انجلترا كانوا أسرى هذه الفكرة. فالواقع أن شافتسبرى وتابعيه الإنجيليين كان يُنظر إليهم، في الدوائر الفكرية في لندن بالتأكيد، على أنهم رجعيون معادون للتقدم بهم مس من الفانتازيا. فمن بين اهتمامات شافتسبرى الإنسانية العديدة كان اهتمامه بإصلاح القوانين الخاصة بالأمراض العقلية، التي كانت تسمى الجنون آنذاك. وكما هو الحال في مجالات أخرى عديدة للإصلاح استحوذت على اهتمامه العاطفي، نجح في أن يضيف لمسة إنسانية على التشريع القاسي الأخرق الذي كان يعامل المرضى عقلياً باعتبارهم موضوعات للاحتقار أو للسخرية. وباعتباره الرائد في هذا المجال، كان رئيس «لجنة الجنون» الرسمية، التي كان مهمتها أن تحدد من المجنون ومن السليم عقلياً. وفي أحد الأيام جاءت أمامه حالة امرأة، قيل عنها لإثبات جنونها: إنها تؤيد «جمعية تنصير اليهود»، وردّ عليهم «شافتسبرى»: «هل أنتم مدركون أنني رئيس هذه الجمعية؟». ولا بد أنه كان يعرف أن الإنجيليين الذين كان هو رئيسهم كانوا يعتبرون بشكل عام عصابة سخيفة من المتحمسين. إذ كانوا هم، على أية حال، الذين أعطوا العصر الفيكتوري سمعته في الحشمة والتطهر، وهم الذين ألهبوا غضب المعادين للدين من أمثال «توماس هكسلي».

وقد عاشت أفكار شافتسبرى عن عودة اليهود بعد موته. وتصف بربارا توخمان في كتاب «Bible and Sword» كيف أن هذه الأفكار كانت في خلفية السياسة الخارجية البريطانية في الشرق الأوسط على مدى جيل، بينما كانت بريطانيا تتلوى وتلتف بطريقتها التقليدية؛ لكي تستخرج شيئاً لنفسها من الصراعات الإقليمية، ولا سيما بين الروس والإمبراطورية العثمانية ولكن مع وجود ألمانيا وفرنسا أيضاً كلاعبين مهمين. وقد كان واضحاً أن نهاية السيطرة العثمانية على مناطق خارج تركيا نفسها ليست بعيدة: فقد كان ينظر إليها بالفعل على أنها «رجل أوروبا

المريض». وظهر عدم الاستقرار هذا فرصة، ولكن فرصة لماذا؟ العودة اليهودية إلى فلسطين لم تكن هي النتيجة المحتملة آنذاك. وكان واضحاً أن اليهود أنفسهم لم يكونوا مهتمين بهذا: واليهود البريطانيون على وجه الخصوص لم يعجبهم إعلان بلفور سنة ١٩١٧م وحاولوا إيقافه.

ولكن مجموعة من العوامل كانت قائمة بحيث تجعل منه أمراً معقولاً، وفيها تأييد شافنسبرى، والوقت الذى أمضاه فى إدارة السياسة الخارجية البريطانية بصفته وزير الخارجية فى حكومة دزرائيلى، وهو ما كان عاملاً ذا أهمية كبرى؛ لأنه فى تلك الأثناء كانت معاداة السامية تتصاعد بشكل واضح، ليست فقط بما صاحبها من فتن وقلاقل فى روسيا والقلق والاضطراب فى بولندا، حيث كانت الجماعات اليهودية المحافظة تعيش حياة تقليدية تكاد تكون قبلية، ولكن أيضاً فى فرنسا وألمانيا حيث كانت الأفكار اليهودية الأكثر تحراً عن الذوبان فى المجتمعات كحل لمعاداة السامية موضع اختبار- وتعانى الفشل. وهكذا، كانت قطاعات كبيرة من الرأى فى أوروبا- فالمعادون للسامية فى الكنيسة والدولة، واليهود الليبراليون والتقليديون، والمسيحيون الإنجيليون المتعاطفون مع اليهود، والديپلوماسيون البريطانيون المتطلعون إلى إبعاد روسيا وألمانيا- قد صارت مدركة «للمشكلة اليهودية» بطريقة لم تحدث من قبل.

وفى الوقت نفسه فإن الرأى الدينى اليهودى الذى كان حتى ذلك الحين يأخذ بوجهة النظر القائلة بأن أية عودة إلى الأرض الموعودة إنما هى بيد الرب وحده، بدأ ينفتح على إمكانية تناول النبوءة الخلاصية على أساس مبدأ «افعلها بنفسك». فربما أمكن المساعدة فى تحديد المصير اليهودى بقدر بسيط من التنظيم. ولهذا تم إقناع الحكومة العثمانية بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ربما تكون فى صالح الاقتصاد المحلى. ومن كل هذه العوامل، بالإضافة إلى حلم سياسى من لدنهم، بنى مؤسسو الصهيونية حركة سياسية كانت تهدف من ناحية إلى تنظيم ورعاية الاستيطان اليهودى فى فلسطين (عن طريق شراء الأراضى إلى حد كبير)، ومن ناحية أخرى، التطلع إلى بناء وطن يهودى. وعند هذه النقطة كانت الصهيونية

حركة علمانية، وكان ذلك راجعاً بدرجة كبيرة إلى أن الرأي الدينى اليهودى كان ما زال يرى «الانتظار اعتماداً على العناية الإلهية». ولذلك لم يكن هناك هدف أيديولوجى واضح للجمع بين الشعب اليهودى المختار والأرض الموعودة لليهود سوى من جانب الجيل التالى لـ «شافتسبرى» من الإنجيليين الذين كانوا يشغلون مناصب عليا فى المؤسسة البريطانية. فقد كانت لهم أچندتهم الخاصة، التى لم تكن يهودية بالمرّة بحفز المچيء الثانى للمسيح عن طريق إعادة اليهود إلى إسرائيل وتحويلهم إلى المسيحية. وكانت تلك أچندة لشعب پروتستانتى إنجليزى مختار، ولم تكن لشعب يهودى.

بيد أن الإنجليز لم يكونوا وحدهم؛ إذ إن الجنرال «چان سموتس»، على الرغم من أنه حارب إلى جانب البوير ضد البريطانيين فى جنوب أفريقيا، قد دُعى إلى دمج الإسهامات الإمبراطورية وإسهامات الكومنولث فى المجهود الحربى البريطانى فى الحرب العالمية الأولى، بل إنه صار عضواً فى وزارة الحرب الداخلية المصغرة برئاسة لويد چورچ، كان يوجّه الحملة. ومن ثم كان له نفوذ عظيم على القرارات التى تؤثر على السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط، وفى مرحلة ما، دُعى إلى قيادة القوات البريطانية فى المنطقة.

كانت السياسة الوطنية للبوير قائمة على أساس المبادئ الكاثينية الصارمة، وكانت لها صيغتها الخاصة من أسطورة الشعب المختار. ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر انطلق البوير فى مسيرتهم العظمى على الأقدام عبر مئات الأميال فى بلاد ليست لها خارطة ليهربوا من البريطانيين، وعندئذ فيما بعد رأوا أنفسهم مثل بنى إسرائيل القدماء الذين قادهم موسى هرباً من ظلم فرعون (أى البريطانيين) الذين كانوا محاصرين بالكنعانيين (الأهالى السود) من كل الجوانب حتى وصلوا إلى الأرض الموعودة (الترنسفال).

ويقرر «ديفيد فرومكين» فى كتابه «A peace to End All Peace» :

«وباعتباره من البوير العارفين بالكتاب المقدس، أيد «سموتس» بقوة الفكرة الصهيونية حينما أثيرت فى الوزارة. وحسبما أوضح هو فيما بعد، كان الناس فى

جنوب أفريقيا ولا سيما السكان الهولنديون الأقدم قد تربوا بشكل يكاد يكون تاماً على التراث اليهودي. وكان العهد القديم.. قد صار هو العمود الفقري للثقافة الهولندية هنا في جنوب أفريقيا». فهو مثل لويد جورج قد تربى على الاعتقاد بأنه «سوف يأتي اليوم الذي تتحقق فيه كلمات الأنبياء وستعود إسرائيل إلى أرضها». وكان يوافق لويد جورج تماماً على أن الوطن اليهودي يجب تأسيسه في فلسطين تحت الرعاية البريطانية».

هناك علامتان فاصلتان أماناً؛ وعد بلفور في نهاية سنة ١٩١٧م، والذي وعد بالتأييد البريطاني لإقامة وطن يهودي، وثانيتها الانتصار العسكري البريطاني على الجيش التركي تحت قيادة الجنرال «النبى» سنة ١٩١٨م، وهو الذي وضع فلسطين تحت السيطرة العسكرية البريطانية، ومن ثم أعطى البريطانيين الفرصة التي لم تكن في الحسبان لتضع إعلان بلفور موضع التنفيذ. وكان للإعلان آباءٌ كثيرٌ. فحتى الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» استشاره «سموتس» في مسودة الإعلان. ولكن الرجل الذي حمل اسمه وحده كان وزير الخارجية البريطاني (ورئيس الوزراء السابق) في الحكومة الائتلافية زمن الحرب التي رأسها «لويد جورج». وتقول بربارا توخمان عن دوره:

«في بلفور كان الدافع من الكتاب المقدس أكثر من كونه إمبريالياً. وإذا كان يمكن القول بأن ثقافة انجلترا المستمدة من الكتاب المقدس لها أي معنى في تخليص انجلترا لفلسطين من حكم الإسلام، فإن هذه الثقافة يمكن تلخيصها في بلفور. وعلى الرغم من أنه كان عكس اللورد شافتسبري، ولم يكن متحمساً وإنما شكاكاً، ولم يكن متحمساً دينياً ولكنه كان متشائماً فلسفياً، ومع هذا فإنه كان متشرباً بقوة، مثل الإنجليس والهيورثان، لعبانية الكتاب المقدس. شعر بلفور الذي كان منغمساً في الكتاب المقدس منذ الطفولة، باهتمام خاص بـ «أهل الكتاب». وحسبما تقول ابنة أخيه ورفيقته وكاتبة سيرته، مسز دوجدال، كان ذلك اهتماماً على مدى الحياة يرجع بأصوله إلى تدريب أمه له على العهد القديم ونشأته الاسكتلندية. وعندما شب عن الطوق. نما أيضاً إعجابه الفكري بجوانب معينة من الفلسفة والثقافة

اليهودية وبدت له مشكلة اليهود في العالم الحديث ذات أهمية بالغة. وكان دائماً ما يتحدث عن هذا بشغف، وأنا أتذكر في الطفولة أنني تشربت منه فكرة أن الديانة المسيحية والحضارة المسيحية تدين لليهودية بدين لا يقدر، وتم رد الدين لها بشكل سيئ وعلى نحو يدعو للخجل».

ولم تكن دوافعه ألفية بالتالي؛ إذ إنه لم يكن يفكر في القدوم الثاني للمسيح، وإنما كان يسدد ديناً فحسب. كما أن إعلانه (وعد بلفور) لم يكن جهداً للتخفيف من نقص الأسيتون و«حايم وايزمان»، الزعيم الصهيوني الذي كان أيضاً باحثاً كيميائياً بارزاً (حسبما اقترح لويد جورج في مذكراته). كما أن ذلك لم يكن في الحقيقة زلفى إلى الرأي العام اليهودى الأمريكى، الذى كان فى ذلك الوقت معادياً للمشروع الصهيونى برمته. وبالنسبة لـ «بربارا توخمان» كان الدافع الأكثر ترجيحاً على الجانب البريطانى كان يقترب من القدس. وكانت بريطانيا فى حاجة إلى قصة مقنعة فيما يتعلق بما سوف تفعله بالأرض المقدسة التى كانت على وشك أن تغزوها (أو تحررها):

«إعلان أن بريطانيا سوف تدخل فلسطين كوصية من أجل أصحابها الذين ذكرهم العهد القديم، سوف يحقق هذا الغرض بشكل يدعو إلى الإعجاب. هذه الحركة، وهى أبعد ما تكون عن الزيف والسخرية، كانت أساسية للضمير البريطانى. إذ لم يكن هناك أى تقدم فى مسيرة بريطانيا الإمبراطورية دونما قضية أخلاقية، حتى ولو كانت الذريعة مجرد اغتيال مبشر أو إهانة وجهها أحد السكان المحليين إلى ممثل التاج. كما كانت هناك ضرورة أكبر لقضية أخلاقية عندما كان الأمر يتعلق بالأرض المقدسة، التى كانت من بين كل الأماكن على الأرض هى التى ترتبط بأثمن الروابط وأغلاها فى ذهن الناس. إن غزو فلسطين سوف يكون الأكثر دقة وخروجاً على العادة بين الإنجازات الإمبراطورية، وحسبما أشار «النبى» حينما ترجل عن فرسه عند بوابة دمشق لكى يدخل المدينة المقدسة ماشياً».

وفى ذلك الحين كان إعلان بلفور قد صدر. وقُيِّض له أن يكون الأساس

الواضح للانتداب الذى فرضته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م، والذى أدارت بريطانيا بمقتضاه الأراضى الفلسطينية حتى أعادت الانتداب ثانية إلى الأمم المتحدة التى خلفت عصبة الأمم، عند إعلان مولد إسرائيل دولة مستقلة سنة ١٩٤٨م. وقد تمثلت الصعوبة فى أن البريطانيين كانوا قد أظهروا شيئاً مختلفاً للعرب، ولم يكن بوسعهم أن يبقوا مخلصين لكل من الجانبين (على الرغم من أن الإعلان كان قد أشار إلى هذا الاتجاه) ويقول الإعلان:

«إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين، وسوف تبذل ما فى وسعها لتسهيل إنجاز هذا الهدف؛ إذ إن من المفهوم تماماً أنه لن يتم فعل شئ يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية فى فلسطين، أو الحقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر».

وربما تكون القضية هى أن الخطوات النهائية تجاه الإعلان وتبنى الانتداب على فلسطين قد اتخذت لأسباب أخلاقية وليس لأسباب ألفية - أى أسباب بلفور وليست أسباب شافتسبرى. ولكن بدون مناورات الأخير لتحريك السياسة الخارجية إلى حيث كانت فى نهاية القرن، فإن الظروف ستكون مختلفة لدرجة أن مثل هذا الإعلان سيكون غير مقنع (أو عبثياً). ومكانة بلفور لا تتلو مكانة شافتسبرى فى الزمن فقط، ولكن الأول صار هو الشرط الأولى للثانى. وفى خيال الإنجليز، كان الرب ما يزال له غرض لصالح الأمة باعتبارها قوة حضارية وشرطياً فى العالم، تقوم بدور من يصحح أخطاء الآخر، ومن يحمل ما أسماه روديارد كيبلينج بطريقة نصف ساخرة «عبء الرجل الأبيض». وسواء كانت ستحفز فى النهاية القدوم الثانى للمسيح أم لا، فإن إعادة اليهود إلى إسرائيل كانت عملاً مناسباً للإنجليز.

وفى كتابه «The Church of England and the First World War» يسجل «آلان ويلكنسون» أن:

«كانت حرب القرم هى آخر حرب إنجليزية تبدأ بإعلان الصيام العام، فائتاء الحرب أدت الكوارث العسكرية إلى القيام بصيام عام آخر. وتم إعلان رأيين فى

الأهمية الروحية للحرب من جانب القساوسة: أن الحرب كانت واجباً مهيباً فرضه الرب على الأمة؛ وأنها كانت عقاباً إلهياً على عدة خطايا قومية متنوعة. وعلى الرغم من المواعظ والخطب في معظمها كانت تعلن أن الحرب عادلة، فإنها كانت تؤكد أيضاً على شروء الحرب والمعاناة الناجمة عنها. وفي الدوائر والأوساط الإنجيلية كان الاعتقاد منتشرًا أن انجلترا قد حلت محل اليهود كشعب الله المختار وأداته. وكانت الهزائم أو الانتصارات في الحرب تفسر كثيرًا بمصطلحات الثواب أو العقاب الإلهي. وبينما استمرت الحرب، وصار من الأصعب تقديمها على أنها حملة صليبية، تحول رجال الكنيسة إلى تصويرها على أنها حماقة إنسانية يمكن أن يستخدمها الرب لأغراضه، كان ينتشل انجلترا مثلاً من أنانياتها.

وبمنتصف القرن التاسع عشر كان للإنجيليين حضور قوى في الحياة سواء في البلاد أو في البرلمان. ولكن على الرغم من أن «ألفريد تيسون» الذي كان في ذلك الوقت قد حظى باعتراف عالمي بأنه أحسن شعراء انجلترا، قد شارك في بعض هذه المشاعر الوطنية فإنه لم يكن إنجيلياً. إذ كانت توجهاته صوب أسلوب واسع متحرر من الكنيسة الأنجيلكانية أقرب إلى كينجسلي منه إلى شافتسبري. والربط الدقيق بين انجلترا والشعب المختار ربما يكون قاصراً على أولئك الذين ما يزالون يعتبرون الكتاب المقدس مرشداً مفيداً في السياسات المعاصرة. بيد أن إحساساً أكثر غموضاً وعمومية بأن انجلترا كانت أمة خاصة ذات دور خاص، وأن هذه الخصوصية تحظى بموافقة إلهية ضمنية بشكل ما، كان منتشرًا على نطاق أوسع كثيرًا، ومن الواضح أن تيسون كان يشارك فيه. والواقع أنه صار السمة الرئيسية للعصر الفيكتوري. وهذه هي الكيفية التي وصف بها الشاعر، في الجزء الثالث من قصيدته المشهورة «Maud»، كيف تعرف على واجبه وواجب أمته في الذهاب إلى الحرب في سبيل الحق:

من أجل السلام الذي أتخيله لا سلام تم إرساله

والآن على جانب البحر الأسود أو بحر البلطيق

والأفواه المميته الطاحنة في اللهب الآتي من القلعة

وزهرة الحرب الحمراء بلون الدم لها قلب من نار
دعها تلتهب أو تخبو، والحرب تندرج مثل الريح
فقد برهنا على أننا نملك شجاعة الدفاع عن قضية، وأنا نبلاء ما زلنا
واستيقظت أنا، كما يبدو، بعقل أفضل
إنه من الأفضل أن تحارب من أجل الخير بدلاً من أن توبخ الشر
لقد شعرت بأرض وطني، إنني واحد مع نوعي
إنني أحتضن غرض الرب والقضاء المحتوم

وفيما بعد، تسببت حرب البوير، والتي نشبت ضد المستوطنين الهولنديين من أجل السيطرة على جنوب أفريقيا (١٨٩٩-١٩٠٢م)، في انقسام مرير في الرأي العام البريطاني. على الرغم من أن كلا الجانبين كان يصوغ مجادلاته في مصطلحات دينية. وبعض الاشتراكيين المسيحيين ممن تبرأوا من الحرب هللوا لأخبار الانكسارات البريطانية في ميدان القتال باعتبارها عقاباً إلهياً على الغطرسة الإمبراطورية البريطانية. وهناك أكثر من تلميح إلى أيديولوجية الشعب المختار يكمن وراء مثل هذه الآراء. وكان هناك آخرون يؤيدون هذه الحرب، على أساس أن الإمبريالية تمثل فضائل الأخوة والخدمة؛ بينما امتدح البروفيسور «بيثان - H.E.J. Bevan» في خطبة شهيرة الحرب باعتبارها وسيلة يمكن لبريطانيا أن تصبح نبيلة مرة أخرى. وهذه مجدداً لمحة إلى فكرة الشعب المختار:

«لا يعطى التاريخ سوى تأييد ضئيل لنظرية أن أمة عظمى تكون بالضرورة مجردة من الأخلاق بسبب حرب مثل هذه. بل إنها تثير وتوقظ النزعة الوطنية من غفوتها، وتستدعي المواطنين من الاستمتاع بترف السلام، ومن المصالح الأنانية والدنيا، إلى التضحيات وإنكار الذات من أجل قضية عامة. وهي توقظ في الكثيرين ضميراً حياً ووعياً بإمكانية الهلاك وعدم الأمان في الشئون الإنسانية، وتدمر الحواجز الاصطناعية بين طبقة وطبقة، وتعلم الكثيرين الصلاة.

كانت هذه ما تزال إلى حد كبير هي الحالة عندما ذهبت بريطانيا إلى الحرب سنة

١٩١٤ م. ولكن الكنائس، وكنيسة انجلترا بصفة خاصة، كان في ذهنها أيضاً الدرس المهم الذى استخلصته من تاريخ الخلاص الذى يرويه العهد القديم. أن سوء العاقبة يلحق بالأمة التى خسرت عطف الرب. ومن ثم لم تكن الحرب مجرد متابعة لتسميتهم رجال الرب، ولكن أيضاً باعتبارهم وطنيين إنجليزاً يرغبون فى النصر بميدان المعركة مما جعل زعماء الكنيسة يبدأون فى القلق بشأن النغمة الأخلاقية للأمة كلما تطورت الحرب العظمى. كما أن هذه لم تكن ببساطة مسألة إنتاج طبقة أفضل من الجنود الذين سيحاربون بجذ ومثابرة؛ إذ إن الرب يسيطر على تلك الأشياء الخارجة عن نطاق سيطرة الإنسان، والتى غالباً ما يتوقف عليها النصر فى ميدان المعركة. الطقس، والمصادفات السعيدة، والتخمينات المحظوظة، وكون القوات فى المكان الصحيح وفى الزمن المناسب، وما إلى ذلك. وهذه كلها فى متناول العناية الإلهية. بشرط أن تكون العناية الإلهية مهياً جيداً. وعندما لم «تنته الحرب بحلول عيد الميلاد»، كما كان متوقعاً على نطاق واسع، عندما انطلقت القوة العسكرية البريطانية فى بداية الأمر إلى فرنسا فى ذلك الصيف، كان ما تستطيعه الكنيسة للمساعدة هو دعوة الأمة للصلاة والتوبة؛ لكى تضمن أن الرب سوف يحارب إلى جانب بريطانيا.

ويكتب ويلكنسون أنه عند اندلاع الحرب كان هناك توقع على نطاق واسع، بحدوث إحياء دينى وطنى؛ والواقع أنه فى بداية الأمر بدا أن الحضور فى الكنائس قد تزايد. ولكن بحلول سنة ١٩١٥ م لم يحدث أى إحياء، وعقد كبير أساقفة كانتربورى الدكتور راندال دافيدسون لجنة؛ لكى يستشيرها فى «الدعوة الروحية للأمة والكنيسة، حول ما تحدثه الحرب وما يمكن عمله». وأوصت ببعثة وطنية، هدفها شحذ الإحياء الدينى الذى كان يُظن آنذاك أنه قد تأخر عن مواعده. وإذا استهلت اللجنة بيانها بفقرة من الإصحاح الثلاثين فى سفر التثنية (١٥-١٦) تقول: «انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر. بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه». أعلنت أن الرب له غرض لصالح الأمة ولكن الأمة تجاهلت الرب:

«إن انشقاقنا الاجتماعى الكبير ونزاعنا الصناعى العظيم يوضحان أن هناك خطأ

جذرياً في حياتنا الوطنية؛ إذ إن لدينا قضية عادلة في الحرب العظمى؛ ولكن الحرب الأهلية التي كانت تبدو وشيكة في أيرلندا في صيف ١٩١٤م والحرب الصناعية العظمى التي جرت الاستعدادات لها آنذاك، كانتا دليلين على أن هناك خطأ بيننا» .

وليست هناك حاجة إلى القول بأن مثل هذه اللجنة لم تكن تسعى إلى الشفاء من هذا الاضطراب من خلال الاستجابة إلى الشكاوى العادلة للأيرلنديين أو بتأييد اتحادات التجارة في نضالها الطويل لإعطاء العمال البريطانيين الأجور التي تعينهم على المعيشة . وقد قال أعضاء البعثة : إن الأمة يجب أن تكفر عن خطاياها وتعود إلى الرب . فبالخطيئة ، كما أوضحت حرفياً المواعظ والخطب التي لا تحصى من جانب كل منبر ونمط أنجليكاني في البلاد ، كان رجال الكنيسة يعنون السكر ، والزنا ، والمقامرة ، وتجاهل الحضور إلى الكنائس ، وعدم الصلاة ، وعدم إخضاع مصالح الذات لصالح المجموع ، وكانت النقطة الأخيرة لها مضامين واضحة في زمن كانت تبذل فيه جهود ضخمة لإعادة بناء قوة الجيش بالتجنيد التطوعي . وإحدى الطرق التي كان يمكن للشباب أن يكفّر بها عن خطاياهم كانت الانضمام إلى الجيش أى الذهاب إلى الحرب ، حسبما قال أحد القساوسة البارزين ، والذي كان يحد ذاته بداية الاستسلام لمشيئة الرب .

كانت «المهمة الوطنية للتوبة والأمل» نجاحاً هائلاً من حيث إنها عملت على تعبئة كل عصب وعضلة لدى كنيسة انجلترا ، وكل ذرة في طاقتها ، لقد كانت النسخة الروحية لحرب شاملة . وبالنسبة لمؤسسة اشتهرت بخمولها ، كان مثل هذا الجهد أمراً غير عادي . بيد أنها كانت فاشلة في كافة الجوانب الأخرى تقريباً . فيما عدا أن البرلمان حدد الساعات التي يمكن فيها أن تباع المحلات العمومية المشروبات الروحية . وبدأ لرجال الكنيسة أن أولئك الذين توجههم الكنيسة كانوا هم أولئك الذين كانوا في رحاب الكنيسة بالفعل ، ولم تتصل برجل الشارع . بل إن الرسالة ، التوبة والأمل ، صارت مسئولية بقدر ما كانت ميزة ، وبدأ محررو الصحف وكتّابها يتساءلون : لماذا ينبغي على بريطانيا أن تتوب ، على أساس أن

الحرب لم تبدأ من جانب بريطانيا، ولكن بدأتها ألمانيا بعدوانها الوحشي الظالم ضد «بلجيكا الصغيرة المسكينة»؟، وبينما تزايدت أرقام الضحايا مع الحملات العسكرية سنة ١٩١٦م، والأخبار الواردة عن الكوارث على جبهة السوم بشكل خاص، صار الرأي العام البريطاني أقل تسامحاً تجاه مفهوم أن مواطنيه الذين يرتدون الزي العسكري على الجبهة كانوا من الخُطاة المذنبين، وأن مصيرهم المرعب قدره الرب لهم على نحو ما عقاباً لهم. وثمة صمت محرج كتم التطبيق الصارم للأفكار البروتستانتية عن الخلاص - أن الجنود الذين ماتوا دون قبول المسيح مخلصاً لهم سوف ينالون عقاباً أبدياً. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الموت في المعركة من أجل الملك والبلاد على أنه يساوي بشكل ما فعل الإيمان المسيحي، وهكذا ارتبطت قضية المسيح وقضية الأمة المختارة ببعضهما ارتباطاً وثيقاً.

وتم تقديم تفسيرات رسمية متسارعة لاختيار «التوبة» الفج في عنوان المهمة. وكان أحد الاقتراحات هو أن الناس ينبغي أن يكفروا عن «خطايا الحضارة الأوروبية» التي أدت إلى الحرب. ولكن ذلك لم يستحوذ على خيال الأمة. فلماذا يجب أن يعاقب الرب البريطانيين على خطايا الألمان؟ وكانت نغمة خطاب كبير أساقفة يورك كوزمولاند نمطية دالة على إخفاقات كثيرة مشابهة:

«لقد أسميناها مهمة وطنية للتوبة والأمل: التوبة لأننا مدعوون إلى أن نحض الرجال والنساء في كل مكان على التوبة عن الخطايا التي وصمت حضارتنا وجلبت عليها حكم الرب الظاهر، والأمل لأنه أثناء الفترة الأخيرة من هذه المحنة المرعبة وفي خضم الكبح المتزايد والتضحية والأسى المتصاعد، سيكون شعبنا بحاجة إلى الأمل، وفي تلك الأيام الصعبة القادمة، حينما يكون النظام القديم قد انتهى وسيكون من واجب الأمة أن تبحث عن نظام جديد في عالم جديد، يجب أن نضع أمام عقول الأمة الأمل الواحد، المسيح، عقله وروحه، لإعادة بناء العالم الجديد».

وبنهاية سنة ١٩١٦م، حسبما يقرر «ويلكنسون»، صارت بعض الحقائق غير

المريحة واضحة جلية. «فى جميع أنحاء البلاد كان الذين حضروا الخدمات الكنسية الخاصة أقلية حقًا من خارج الكنائس، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا يحضرون الاجتماعات العامة». ومن ناحية أخرى تلقت الحياة الداخلية فى الكنيسة حافزاً، ونتيجة لأن زعماء المهمة من رجال الكنيسة حصلوا على انطباع أكثر واقعية عن الفجوة التى كانت قد اتسعت بينهم وبين الرجل العادى. وهكذا فإن التوبة التى حثت اللجنة الأمة عليها لم تحدث حقًا سوى داخل الكنيسة نفسها، مع الكثير من ضرب الصدر (ندماً) الذى تضمن تكوين ما لا يقل عن خمس لجان للتحقيق. ولكن كنيسة انجلترا أظهرت حينذاك، كما أظهرت منذ ذلك الوقت، قدرًا بالغًا من البكاء على الذات والواقع. إنها أبدت ما يكاد يكون اهتمامًا مزدوكياً (تعذيب الذات) فى التعامل مع أخطائها، كما لو أن هناك راحة معاكسة يمكن الحصول عليها بهذه الإشارة إلى أن مذهب الفساد الكلى للإنسان. كان رجال الكنيسة كلهم من الرجال. قد برهن على صحته مرة أخرى.

كان التحدى الخاص لكنيسة انجلترا فى هذه الحرب، باعتبارها الكنيسة الوطنية الراسخة التى كان حاكمها الأسمى هو الملك، هو أنها لا تستطيع سوى أن تلقى بثقلها لمؤازرة الحرب. وبذلك كان كل خيار آخر - السلام، الحياد، التبرؤ من الحرب، النقد بالنبوءات، المعارضة، بل حتى التأييد الواعى جدياً - مغلقاً. وإذا ما كان العامة قد حكموا فى النهاية بأن الحرب كانت تستحق القيام بها، فإن كنيسة انجلترا حيثئذ يمكنها أن تنعم بدفء أنها أثبتت كونها على حق. ولكن إذا ما كانت العاطفة الوطنية غير واثقة من جدارة الصراع، والطريقة التى تم بها فوق أى اعتبار آخر، فإن الكنيسة وما أظهرته بشكل لافت من تضامن مع الدولة كان من المحتمل أن يبرهن على أنه عبء ثقيل على كاهلها. وقد تبلور موقف الكنيسة العام تجاه الحرب فى المهمة الوطنية، التى كانت قد رفعت الرهان بشكل كبير، وربما كانت المقامرة مبررة، على الرغم من أن أولئك الذين أخذوا بها، الذين أساءوا الحكم على فرص النجاح لا يمكن أن تنسب إليهم الكثير من الشجاعة الأدبية لهذا. وثمة اقتباسان، أحدهما من سنة ١٩١٥م وثانيهما من سنة ١٩١٦م، يظهران زعماء الكنيسة يتبنون نغمة تبدو فيها إساءة التقدير بطريقة مدهشة؛ إذ إننا نعرف الآن كيف كان إحساس الناس عن الحرب بمجرد أن انتهت.

والاقتباس الأول من سنة ١٩١٥م، من أسقف لندن، الدكتور «إنجرام»، الذي يصفه ويلكنسون بأنه «الصوت الذى ارتفع فوق أصوات كل رجال الكنيسة الآخرين . وقد أعلن فيما كتبه فى صحيفة كنسية تسمى «الجارديان - Guardian» .

«إننى أظن أن الكنيسة يمكن أن تساعد الأمة على أفضل نحو ، أولاً بأن تجعلها تدرك أنها مشتبكة فى حرب مقدسة ، وألا تخشى من قول هذا . لقد مات المسيح يوم الجمعة الحزين من أجل الحرية والشرف والفروسية ، وأولادنا يموتون من أجل الأشياء نفسها . وإذا أدركت الأمة أن كل شيء يستحق الحياة فى الدنيا معرض للخطر ، فإنها لن تتردد فى أن تسمح بتعبئة نفسها . إنكم تطلبون منى النصيحة فى جملة عما يجب على الكنيسة أن تفعله . وأجيب عبثوا الأمة من أجل الحرب المقدسة» .

والاقتباس الثانى من هنسلى هنسون ، وقد صار فيما بعد أسقف «دورهام» وكان مفترضاً على نطاق واسع أنه صوت الاعتدال والحدائق . ففى مقالة له سنة ١٩١٦م تنبأ فيها (بشكل صحيح) بأن «المسيحية المنظمة لا تخرج بصورة جيدة من أزمة العالم» ، واستمر هنسون لكى يحدد الآمال التى كان يعلقها على الدور المستقبلى للكنيسة فى الوطن :

«سوف يبرز اسم انجلترا من الصراع العالمى بعناوين جديدة للتبجيل الإنسانى ، وأعز من ذى قبل على عقول الرجال الإنجليز ، مشحونة بشكل أكثر ثراء عن ذى قبل بالارتباط بالخدمة العامة والذكريات المجيدة عن البطولة الشخصية . وسوف تحصل كنيسة انجلترا على مجد من شخصيتها التاريخية بوصفها مؤسسة وطنية . وسوف يميل الرجال لأن يقدموا لها محاولة منصفة عادلة ، مستعدين لأن يعترفوا بحقها فى التعبير عن الديانة المسيحية للرجال الإنجليز ومن أجلهم . . . إن رابطة جديدة بين الكنيسة والأمة سوف تتشكل فى جحيم البلوى» .

كان أولئك الذين قادوا الكنيسة فى الحرب العالمية الأولى فى كل أنواع الطرق يشبهون - وغالباً ما كانوا على معرفة شخصية - بأولئك الذين تولوا قيادة الجيش البريطانى . فقد كان لديهم نفس التصميم العنيد على إعادة فرض الفشل ، ونفس

عدم الاستعداد للنظر فى تغيير الأساليب، ونفس القصور فى الخيال، وفوق هذا وذاك نفس القصور فى السخرية الواعية. كانت تلك فى الواقع هى روح العصر، أو على الأقل روح الطبقة العليا والشرائح العليا من الطبقة الوسطى التى كان يخرج منها الرجال الذين يتولون قيادة الأسقفيات الإنجليزية والقوات العسكرية الإنجليزية. ولكن الأمر تغير فى زمن الحرب، وكان التغيير إلى حد كبير من أسفل إلى أعلى، ولذلك كان آخر من سمعوا بالتغير الجذرى وواءموا أنفسهم معه هم أولئك القابعين فوق القمة.

من الشائع أن الحرب العظمى سحقت الثقة بالذات فى الإمبراطورية البريطانية قرب قمتها وبطريقة مدمرة مثلما سحق جبل الجليد السفينة تيتانيك، التى كانت أعظم سفينة بُنيت على الإطلاق، قبل ذلك بعامين. وليس من الواضح تمامًا أن الصدام جعل فجأة مجموعة من الفروض التى كانت تكون ثقافة كاملة، تبدو وقد عفا عليها الزمن، وهى مجموعة من الفروض التى كانت تلخيصاً لجنس بأسره. وكثير من هذه الفروض كانت فروضاً دينية. وكان من بينها الإيمان بأن الرب منح انجلترا غاية خاصة. وكانت طاعة تلك الغاية هى التى جعلت انجلترا تذهب إلى الحرب. وبهذا كانت انجلترا تفى فى كرم وحماسة بنصيبها فى صفقة الميثاق، أى أن يضمن نجات انجلترا. وإذا كان هناك بعض التصحيح الذى ينبغى القيام به فى العملية، فإن المقصود به أن يكون عقاباً خفيفاً، بحيث يكفى للشفاء من التراخى والخطيئة، ولم يكن المقصود به أن يكون جحيماً على الأرض. ولكن هذا ما حدث.

وحدثت السخرية الدرامية فى التفاعل المتبادل بين ما هو فى الذهن وما يحدث حقاً. فالبطلة تظن أنها فى طريقها إلى الشفاء، ونحن نعرف أنها فى سبيلها إلى الموت. ويتبع المزيج نوعاً من السخرية التراخيديّة، وهو تعليق على حماقة التفاؤل. وبعيداً عن المؤرخين العسكريين، فلا شك فى أن أحسن كتاب عن الحرب العالمية الأولى هو «The Great War in Modern Memory» الذى كتبه أستاذ أمريكى فى الأدب الإنجليزي، هو پول فوسل. فهو يقرر أن الحرب برمتها تدعو إلى السخرية؛ لأن الحرب كلها أسوأ مما هو متوقع:

«كل حرب تشكل سخرية من الموقف ؛ لأن وسائلها لا تتناسب بشكل ميلودرامي مع غاياتها . وفي الحرب العظمى تم القضاء على ثمانية ملايين شخص ؛ لأن شخصين هما الأرشيديوق فرنسيس فردينان وقرينته قُتلا رمياً بالرصاص . . . لقد كانت الحرب العظمى أشد سخرية من أى حرب أخرى سبقتها أو تلتها . فقد كانت إحراجاً شنيعاً للأسطورة التحسنية الشائعة التى حكمت الوعى العام على مدى قرن من الزمان ؛ إذ إنها تناقض فكرة التقدم . . . » .

والتحسنية ، أى الإيمان بأن البشرية يمكن أن تتحسن وأنها تتحسن ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يسمى رأى الهويج فى التاريخ . والتفسير الهويجى للتاريخ ، الذى نشره اللورد «ماكولى» فى منتصف القرن التاسع عشر ، يرى أن الحضارة الإنجليزية هى ذروة التقدم السياسى . ومع التدوين الإنجيلى العنيف والتزام بالإصلاح السياسى المستمر ، كان ماکولى وكثير من الأجيال التالية من الشعب الإنجليزى الذين تأثروا به ، متأكدين من أن الرب يقف إلى جانب انجلترا . وكانوا متأكدين من هذا تماماً لدرجة أنهم اعتبروا أن المؤسسات الإنجليزية والدين واللغة والعادات والسلوك والثقافة الإنجليزية هى الهدف الأسمى للحضارة فى جميع أنحاء الدنيا . كما كانوا واثقين طبعاً أن الرب هو الذى شكّل كل تلك الأشياء بفضل عنايته . ناهيك عن أنه جلب للإنجليز المكاسب التى حققها «الثورة المجيدة» سنة ١٦٨٨م (التي طردت الملك الكاثوليكي جيمس الثانى) والتى نبعت منها كل الخيرات التالية (من خلال منطق الأحداث من ناحية ، ومكافأة إلهية من ناحية أخرى) .

ولكن السخرية حلت مع القصف المدفعى والرصاص والدبابات والأسلاك الشائكة والوحل فى ميدان المعركة الخالد . فقد كانت الأغنية التى تنشرها القوات البريطانية على سبيل المرح ، أثناء سيرها إلى القتال تقول :

«بوسعنا أن نراهم

بوسعنا أن نراهم يحومون حول الأسلاك الشائكة العتيقة» .

وهى أغنية تصف المصير البشع الذى لقيه أفراد كتيبة كاملة . لقد اكتسب

البريطانيون بسرعة موهبة المرح الأسود بالشكل الذى تسبب فى حيرة أقرب حلفائهم . وكتب فيلبس چيس : «كلما كانت نبرة التمرد فى ذلك أعلى ، كلما ضج الناس بالضحك» . لقد كان ذلك هو «ضحك البشر الفنانين من الحيلة التى دبرها لهم قدر حديدى» .

ويستمر فيليب چيس قائلاً : «كانوا قد تعلموا أن هدف الحياة كلها هو الوصول إلى الحب والجمال ، وأن الجنس البشرى فى تقدمه صوب الكمال قتل الغريزة الوحشية والقسوة والتعطش إلى الدماء ، وقانون البقاء الوحشى البدائى الذى يعتمد على المخالب والأسنان ، على الفأس والهرادة . وكان الشعر كله ، والفن كله ، والدين كله ، يبشرون بهذه البشارة ويزفون هذا الوعد . والآن تكسر المثال والنموذج مثلما تتكسر زهرية من الصينى ارتطمت بالأرض وتهشمت . لقد كان التناقض بين «هذا» و «ذاك» مُهلكاً . . وكان مرح الروح زمن الحرب هو الذى يمجّر بالضحك عندما يرى أن تلك الكرامة والكياسة كلها قد صارت نهباً للحرب» .

كانت تلك أنباء شؤم بالنسبة للديانة الوطنية ، فمن الناحية العسكرية كانت الحرب قد بدأت بشكل طيب تماماً . ولأن البريطانيين كانوا يفضلون اعتبار الأسطول الملكى السلاح الرئيسى للدفاع ، فإنهم احتفظوا فقط بجيش محترف صغير فى زمن السلم ، وكان ذلك أمراً جيداً للغاية . وذهب حوالى مائة ألف جندى إلى فرنسا وبلجيكا فى المرحلة الأولى من الحرب ، وسرعان ما وجدوا أنفسهم مشتبكين فى أكبر اختبار لنظام ميدان المعركة ، أى التقهقر المنظم أثناء القتال (ما يسمى الانسحاب من مونس) . هذا الانسحاب الذى اعتبرته معظم الكتب الدراسية العسكرية فيما بعد انسحاباً مخزياً أمام قوة عسكرية متفوقة ، سرعان ما تحول إلى قصة مجيدة أخرى فى التاريخ البريطانى . وتحت ما كان مفترضاً فى بريطانيا أنه حماية إلهية - فإن الحكايات شاعت عن ملاك فى السُحب كان يتجلى أمام بعض القوات السائرة إلى القتال - تماسك الجيش بشكل كاف بحيث صمد وقاتل ، وأعطى صورة طيبة عن نفسه . وفى انطلاقة مبكرة للسخرية البريطانية زمن

الحرب، أخذ الجنود الناجون النظاميون وصف القيصر للحملة العسكرية البريطانية بأنها «جيش صغير يبعث على الاحتقار»، وخلدوه بأن أطلقوا على أنفسهم «العواجيز الذين يستحقون الاحتقار»، بيد أن الباقين منهم استمروا فى زمن السلم على إقامة استعراض سنوى تكريماً لزملائهم الذين سقطوا فى الميدان على مدى نصف القرن التالى أو أكثر، وظلوا فخورين جداً بالاسم الذى أطلقه عليهم قيصر ألمانيا.

وشهدت السنة التالية أول انتكاسة كبرى فى الحرب، وهى الحملة الجسورة، ولكنها كانت سيئة التخطيط، للاستيلاء على شبه جزيرة جاليليولى التى تحرس ممر الدردنيل الذى يصل بين البحر المتوسط والبحر الأسود. فقد كان الجنود الذين ذهبوا إلى فرنسا سنة ١٩١٤م نظاميين كلهم تقريباً، أما أولئك الذين حاربوا فى تركيا فكان جزء منهم نظاميين ولكن أيضاً إقليميين (بمعنى أنهم ميليشيا لبعض الوقت، وكثيرون منهم خدموا جنوداً نظاميين فى زمن السلم)، ونظاميين ومتطوعين من الممتلكات البريطانية، ومن استراليا أساساً. وكانت الجيوش البريطانية سنة ١٩١٤م وسنة ١٩١٥م على السواء قد اعترها الضعف الشديد؛ بسبب الصراع الذى لا يتوقف وعدد الضحايا المتصاعد لدرجة أنه تقرر البدء من جديد وتشكيل جيش جديد من المتطوعين جزئياً، ثم فى النهاية من خلال التجنيد الإجبارى أيضاً. وكان هذا ما سُمى باسم «جيش كتشنر»، تيمناً باسم بطل الحرب الاستعمارية الذى كان أيضاً وزير الحرب فى ذلك الحين، وهو اللورد كتشنر. وكان الغرض منه أن يستعد ويتدرب، ثم ينفذ الاندفاع الكبير على الجبهة الغربية التى كان القادة البريطانيون مقتنعين بأن الاستيلاء عليها سوف يحول الحرب إلى صالحهم. وعلى أية حال، فإن الفرنسيين كانوا يتلقون ضربات مرعبة فى ثيردن، وكان أى مجهود بريطانى كبير فى أى مكان آخر كفيلاً بأن يسحب بعضاً من القوات الألمانية التى تواجههم.

وهكذا كانت بريطانيا وجيشها مستعدين لخوض معركة ضد العدو كان المقصود بها تحويل مسار الحرب، ولكن فشلها فى تحقيق ذلك حول التاريخ

البريطاني مع هذا. وقد تكرر سماع كل تفاصيل معركة السوم. وإذ كانت القيادة العليا البريطانية مدركة لأن وحدات كثيرة جداً من قواتها لم تخض الحرب من قبل، وأنهم كانوا يعتمدون في تجنيد ضباطهم على رجال لم يكونوا من نفس الطبقة الاجتماعية التي جاء منها الضباط النظاميون في سنة ١٩٤١م وسنة ١٩١٥م، فإنها أصدرت تعليمات محددة بما ينبغي أن يحدث في المعركة بينما تتطور كل مرحلة من مراحلها. ويلاحظ «فوسل» ما علق عليه عدة مؤرخين عسكريين: نقص الثقة، بل ونقص الاحترام، الذي كان كبار الضباط البريطانيون يظهرونه تجاه الرجال الذين يتولون قيادتهم أثناء المعركة. ويكتب أن هناك سبباً آخر يمكن إرجاعه إلى النظام الطبقي والفروض التي أفرزها وأقرها. فقد كان العسكريون النظاميون في القوات البريطانية يبدون احتقاراً ظاهراً للرجال الجدد الذين تم تدريبهم بسرعة من «جيش كتشنر» والذين تم تجنيد عدد كبير منهم من العمال في بلاد الوسط (ميدلاند) والشمال.

«لقد افترض المخططون أن هذه القوات - التي تجهزت للهجوم بحمولة تصل إلى ٦٦ رطلاً من المعدات لكل فرد - كانت بسيطة وحيوانية بحيث لا يمكن أن تعبر الفضاء بين الخنادق المعادية سوى في ضوء النهار الكامل وتصطف في صفوف أو موجات. وكان هناك شعور بأن القوات سوف ترتبك بأى تكتيكات أكثر ذكاءً مثل الاندفاع من مخبأ إلى مخبأ، أو تسير وراء القصف الزاحف المتواصل».

ولا يقول فوسل هذا، ولكن من الممكن أن نتحرى في الثقة الزائدة العنيدة التي أبدتها القادة أكثر من لمحة إلى التفكير بطريقة الشعب المختار - أنه مع كل هذا الخطر، لم يكن ممكناً أن تمضى الأمور في طريق الخطأ بطريقة بالغة السوء؛ ذلك أن حماية الرب المقدسة ستكون في متناول القوات البريطانية مجدداً، كما كان يحدث دائماً من قبل. وكان دوجلاس هيج، القائد العام البريطاني، مفرطاً في الثقة؛ إذ إن تجهيزاته لم تترك مكاناً للخطأ، ولم تُهمل أية تفاصيل في التخطيط العسكري، وكتب إلى زوجته قبل المعركة بوقت قصير «إننى أشعر أن كل خطوة فى خطتى تم اتخاذها بمساعدة إلهية». وافترض أن «الرب يساعد أولئك الذين

يساعدون أنفسهم» لا بد أنه قد كسب له قدرًا كبيراً من المساعدة الإلهية من رب الجيوش . ومثل هذه المشاعر كانت تجد من يشارك فيها عالمياً ؛ إذ إن أمة كاملة كانت على وشك المخاطرة بدماء رجالها وحياتهم على أساس افتراض أنها فعلاً الشعب المختار .

وساءت كل الأمور ؛ إذ إن المدفعية الألمانية ، والمدافع الآلية الألمانية والأسلاك الشائكة ، تمكنت من أن تصد موجة بعد موجة من المشاة البريطانيين المتقدمين والذين واصلوا التقدم بشكل لا يكاد يصدق في ميدان المعركة الذي لم يلبث أن غطته جثث الموتى وأجساد الذين يعانون سكرات الموت . وصار أول يوم في يوليو ١٩١٦ م أسوأ يوم في تاريخ الجيش البريطاني . فمن بين مائة وعشرة آلاف رجل في الهجوم الابتدائي ، كان الضحايا أكثر من ستين ألفاً ، وعدد كبير من أولئك الذين قتلوا في الحال تركوا راقدين في ميدان المعركة لعدة أيام ، وكانت صيحاتهم الجماعية من الألم والعطش تولد صراخاً مرعباً في الليل كان يُسمع في مناطق بعيدة خلف خطوط القتال . فقد كان من الخطورة بمكان محاولة إنقاذ أكثر من حفنة من الأفراد . وفي أثناء النهار كانت صيحاتهم تغرق في ضجة المعركة المستأنفة ؛ لأن الجنرات استنتجوا أن خططهم المحبوبة لليوم الأول ما تزال صالحة لليوم الثاني أو اليوم الثالث . واستمرت المعركة حتى نوفمبر ، ومع هجوم تلو هجوم ، لم تحقق سوى الثبات أو تقدم ياردات قليلة مما كشف عن جهد بلا نهاية وخسائر جسيمة . ومن الصعب تجنب الانطباع بأن العناية الإلهية كانت ما تزال هي المعول عليها في كسب المعركة ، وأن هيج الذي كان كالفينياً اسكتلندياً صارماً ، أحس أن الرب ينبغي أن يتاح له الوقت الكافي ؛ لكي ينضم إلى المعركة ويسلمه النصر . وبدا وكأن الرب قد تخلى عن منصبه بشكل مؤقت . بيد أن هيج لم يساوره أدنى شك في أنه سوف يعود إليه . والواقع أن أفضل طريقة لضمان مساعدة الرب هي المحافظة على الإخلاص للخطة أي الوفاء بنصيب بريطانيا . والاستمرار في المحاولة كان حرقاً محملاً لإيمانية ؛ إذ إن الفشل في محاولة الإيمان كان يمكن أن يعنى خسران الحرب .

ولم تكن نهاية عذاب سنة ١٩١٦ م سوى تمهيد للرعب الذي تجدد سنة ١٩١٧ م

وأكثر معركة مخيفة خاضها البريطانيون على الإطلاق، وهى معركة پاسشنداييل (رسمياً معركة بيرس الثالثة) إذ لم يكن هيج قد فقد قناعته بالنصر البريطانى النهائى ، ولكنه توصل إلى اعتبار الخسائر الضخمة بمثابة تضحية دم ضرورية .

والأسطورة الشائعة عن أنه كان جاهلاً بالظروف السائدة على الجبهة لا سند لها . فقد كان على علم تماماً بكل المراحل ، وغالباً ما يعبر فى مراسلاته الخاصة عن الألم بسبب الأحوال على الجبهة ، وبسبب معدل الخسائر (كان العدد النهائى لمجمل القتلى من البريطانيين والكومنولث أقل من المليون قليلاً) ولكن يبدو من المحتمل أن لا أحد سوى رجل متأكد من أن الرب يقف بجانبه يمكنه أن يستمر فى إصدار الأوامر إلى آلاف الجنود بأن يذهبوا إلى حتفهم يوماً بعد يوم . ورد الفعل تجاه هيج بعد الحرب يمكن إرجاعه جزئياً إلى الطريقة التى اختار لويد جورج أن يلومه بها على توجيهه لحرب كان هو المسئول عنها فى نهاية الأمر - إذ كان بوسعه عزل هيج فى أى وقت - كما يمكن إرجاعه إلى تخطى البريطانيين عموماً عن مفهوم أن إسهامهم فى الصراع له أية علاقة بخطط الرب . وقد نُظر إلى هيج على أنه كان يتبع وجهة نظر لاهوتية عن مكانة بريطانيا فى العالم إلى خاتمتها المنطقية ، وهى وجهة نظر كانت بقية الناس قد أداروا ظهورهم لها ، فى وقت ما بين سنة ١٩١٦ م ونهاية الحرب .

كانت حملة كتشنر للتجنيد قد ركزت على أن الأصدقاء يمكن أن يلتحقوا بالجيش ويحاربوا سوياً فيما عرف باسم «Pals Battalions» (أى كتائب الرفاق) . وقد كانت هناك شوارع بأسرها فى المدن الصناعية فى وسط وشمال انجلترا تتلقى الأنباء الرهيبة بأن لا أحد من رجالها نجا من الموت . لقد كانت كارثة وطنية . ويتعرف فوسل على نقطة التحول : «لقد تعلم الجيش البرىء تماماً ما هو الخير وما هو الشر فى السوم يوم أول يوليو سنة ١٩١٦ م . إن تلك اللحظة ، وهى واحدة من أكثر اللحظات إثارة فى التاريخ الطويل للتححر الإنسانى من الوم ، يمكن اتخاذها نمطاً لكل أفعال الحرب التى تدعو للسخرية» .

وواقع أن هيج واصل الحرب بعناد؛ وتقدم البريطانيون بشكل ثابت من حيث

الحذق والمهارة، واكتشفوا الحرب الجوية، والقصف الزاحف، وقوة المدفع الآلى، واستخدام التغطية، وعدم جدوى الخيالة، كما أنهم اخترعوا الدبابة. وبحلول خريف سنة ١٩١٨م كان الجيش البريطانى (الذى ضم قوات كبيرة من استراليا ونيوزيلندا وكندا) هو القوة الأولى الرابحة فى الميدان الأوروبى، وبسلسلة من الانتصارات الساحقة التى تم تجاهلها بشكل يكاد يكون تاماً فى حينها وفيما بعد، أوصل الجيش الألمانى المرهق إلى نقطة الانهيار والتسليم، والاستسلام غير المشروط.

ولكنه لم يعد يثق أبداً فى أن الرب سوف يكسب معاركه نيابة عنه. فمنذ ذلك الحين وصاعداً كان اعتقاد عامة الناس بأن الإنجليز شعب مختار يؤخذ على سبيل السخرية فقط، وكان من المحتمل بنفس القدر أن ينتج عنها غضب جارف. والحكم النهائى الذى يلحن الوطنية البريطانية التى جمعت بين الرب والمجد فيما قبل الحرب، هو الذى أصدره ويلفريد أوين، فى واحدة من أشهر القصائد. وأكثرها مראה. عن الحرب العالمية الأولى بعنوان: «Dulce et Decorum»:

منحنون بشكل مزدوج مثل الشحاذين المسنين تحت المخلاة
ركبنا مضروبة، ونسعل مثل العرافات الشمطافات
نسب ونحن نخوض فى الوحل
حتى ندير ظهورنا على المشاعل المصاحبة
وصوب راحتنا البعيدة نبدأ مشينا المتعب
يسير الرجال نائمين. وكثيرون منهم فقدوا أحذيتهم
ولكنهم يعرجون، ودمهم مُراق. كلهم يعرجون، كلهم عميان
أسكرهم الإرهاق، صُمّ لا يسمعون حتى قنابل الغاز التى تسقط خلفهم بنعومة
الغاز، الغاز أسرعوا أيها الفتية. نشوة من التسكع والتردد
نضع الخوذات الرثة فى الوقت المناسب

بيد أن شخصاً كان ما يزال يصرخ ويتعثر
ويتخبط مثل رجل فى حريق أو فى الجير
معتم من خلال المربعات الصغيرة والضوء الأخضر الكثيف
كما لو كان تحت سطح بحر أخضر، رأيته يغرق
وفى كل أحلامى أمام منظرى الذى لا حول له ولا قوة
كان يغطس تجاهى ويذوب ويختنق ويغرق
وإذا فى بعض الأحلام الخائفة كان بوسعك أيضاً أن تمشى بخطى وثيدة
خلف العربة التى طرحناه فيها
وترقب العينين البيضاوين تتلويان فى وجهه
وجبه المعلق مثل وجه شيطان مريض بالخطيئة
وإذا كنت تستطيع أن تسمع، عند كل هزة، الدم
يندفع مغرغراً من الرثة التى أفسدتها الرغاوى والزبد
مقضومة مثل إفراز القروح الدنيئة التى لا شفاء لها على الألسنة البريئة
فإنك يا صديقى لن تحكى بمثل هذه اللذة الفائقة
إلى الأطفال المتحمسين لمجد يائس

الكذبة القديمة : Dulce et decorum est Pro patria mori (*)

ويرى «آلان ويلكنسون» فترة الحرب العظمى ليس فقط باعتبارها النقطة التى
يمكن عندها قياس التدهور الإحصائى لكنيسة انجلترا: وإنما هى النقطة التى بعدها
كان «مهما فعلت الكنيسة، فإنه لم يعد بوسعها أبداً أن تعيد بناء نمط سلطتها

(*) هذا بيت شعر باللاتينية للشاعر الرومانى «هوراسيوس» وترجمته «إن من الحلاوة والوفاء أن يموت
المرء فى سبيل وطنه». المترجم.

القديمة فى الوطن». وهو يحدد التناقص فى حضور البالغين (فوق خمسة عشر عاماً) صلاة الفصح فى كنيسة انجلترا بنسبة ٩٨ فى كل ألف سنة ١٩١١م، ٩٠ فى كل ألف سنة ١٩٢٥م، ثم ٧٣ فى الألف سنة ١٩٣٩م، و ٦٣ فى الألف سنة ١٩٥٨م، و ٤٢ فى الألف سنة ١٩٧٣م. وكان الرقم المعادل سنة ١٩٩٧م ٢٩ فى الألف أو ٩, ٢ فى المائة من السكان.

وكما يعترف ويلكنسون أيضاً، فإنه بعد سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة ما يزال إحساس الإنجليز بأنفسهم مطارداً بتلك الحرب وخيالاتها وصورها، ومطارداً بالسؤال الذى يبحث عن حل: «ما الخطأ الذى وقع؟». ففى أعقاب الهولوكوست تعين على اليهود أن يسألوا أنفسهم فيما بعد: «أين كان إلهنا فى أوشفيتز؟» وقبل هذا بسنوات، كان الإنجليز قد صكوا نفس السؤال: «أين كان ربنا فى معركة السوم؟».



(٨)

الجنس والأعمال الوحشية

كانت الفترة التي خضعت فيها إسرائيل لحكم قضاتها فترة من الحروب القبلية المستمرة، وقد تم تسجيلها في النصوص المقدسة بحرص على الرغم من أنها لم تكن دائماً في ترتيبها الصحيح. وقد وُفّر هذا ذخيرة كافية للخطب الكنسية الهروتستانتية المتشددة؛ حيث كان يمكن وصف أعداء انجلترا بأنهم الموابيون، أو الكنعانيون، أو الفلسطينيين أو العمالق أو العمونيون، والآشوريون المشتتون. وكما تقول ليندا كولي:

«أرسل آدم فيرجوسون فرق الملك في الأراضي العليا للقتال ضد بقايا الجيش اليعقوبي في ديسمبر سنة ١٧٤٥م بخطبة اسكتلندية بنيت على أساس خطبة يوأب في جيش إسرائيل قبل معركته مع العمونيين... كما أن ألكسندر ويبستر، القس المنحاز تماماً للحكومة في كنيسة تولبوت في إدنبره، كرّس خطبه في كولودن لأولئك الذين يملؤهم «الاهتمام بصالح قدسنا والحماسة لإسرائيل البريطانية». بينما قام رجل كنيسة آخر، إنجليزى هذه المرة، بالترويج للأهمية الكونية لحرب السنوات السبع في عنوان خطبته للاحتفال باتفاق الصلح في باريس سنة ١٧٦٣م - «انتصار الإسرائيليين على الموابيين، أو الهروتستانت على البابويين».

وافترض أن كل من يقاوم قوة الدولة الوطنية الهروتستانتية الإنجليزية يمكن اعتباره من الكنعانيين - ومن ثم يتم التعامل معه بقسوة مماثلة - كان قد انتقل بالفعل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لا سيما عندما جابهت سكان الأراضي الأصليين أى السكان الأصليين في أمريكا أو الهنود الحمر.

و ضد الأعداء الأقوياء ، كان الحكم بواسطة القضاة الدينيين يوكد شعوراً بأنه مصدر للضعف ، مثلما كانت فرقة إسرائيل ؛ لأن كل قبيلة عبرية كان لها زعيمها الخاص ، وقد أدى هذا بآخر القضاة ، صمويل ، للموافقة مرغماً على أن إسرائيل يجب أن تصير مملكة متحدة ، ووافق على أن يصبح شاول أول ملوكها . ومع هذا فإنه حذر من مخاطر المركزية والطغيان ؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان هو وشاول مشتبكين في خلاف مرير ونزاع مستمر ، وكان أحد واجبات الملك الرئيسية أن ينظم الجيش ويقوده ، وهو ما قام به شاول لفترة من الزمان بنجاح كبير ، ولكن الخلاف مع صمويل بات حتمياً .

كانت الظروف الفعلية السائدة تتميز بنوع من الخصوصية . فقد طلب صمويل من شاول أن ينتقم من الهجمات التي شنها العمالق على الإسرائيليين خلال رحلتهم في البرية بعد الخروج قبل مائتي سنة . وهزم شاول العمالق ، ولكنه لم يدمر كل فرد وكل شيء كما هي العادة (*) (وكما طلب صمويل) ، وتم إحضار أجاج ملك العمالق الأسير أمام صمويل الذي اتهم شاول بالعصيان ؛ لأنه تركه حياً ، ومضى هو ليمزقه إرباً بنفسه ؛ ليبين ما أمر به الرب . والطريقة التي رويت بها القصة ، لا تترك مجالاً للشك في أنه كان من المتوقع أن ينحاز القراء لصمويل ، ولفعلته القاسية والانتقامية . ومضى شاول وصمويل كل في طريقه ، ولم يلبث صمويل أن سعى لتقويض مكانة شاول بأن عين مساعده داود (الذي كان قد ذبح جويلات العمالق ، ومن ثم قدم ذخيرة إضافية لأجيال من الخطب والمواظ البروتستانتية بعد ذلك بآلاف السنين) .

وأسس داود عاصمته القدس ونقل تابوت العهد إلى هناك ؛ لكي يجعل المدينة بؤرة للهوية الدينية الوطنية . وقد أعطته انتصاراته على القبائل المجاورة إمبراطورية مصغرة بالفعل ليحكمها ، ولكن المملكة لم تصل إلى ذروة القوة والمجد سوى في

(*) تتكرر في العهد القديم الأوامر الإلهية بالقضاء على كل نفس حية : الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وحتى الحيوانات . اقرأ على سبيل المثال في سفر التثنية الإصحاح ٢٠ : « فلا تستبقوا فيها نسمة حية بل دمروها عن بكرة أبيها » (١٦ - ١٧) ، وفي سفر العدد الإصحاح ٣١ : « فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، واقتلوا أيضاً كل امرأة ضاجعت رجلاً » (١٧) . المترجم .

عهد «سليمان بن داود»، وبدأت الحضارة الإسرائيلية تحرز تقدماً كبيراً. وبطبيعة الحال، فإن دورة تاريخ الخلاص - التي هي من أعراض الشعب المختار - بدأت تؤكد نفسها مرة أخرى في نهاية الأمر، وصار الناس أقل إيماناً عندما صاروا أكثر رفاة. وقد تسامح سليمان إزاء الممارسات الوثنية، كما سمح بالمستوطنات غير العبرية في المملكة. وكان حكمه يشير قدراً متزايداً من الاستياء ولا سيما اعتماده على عمل السخرة الإجبارية. اقرأ النص المنسوب إليه في سفر الأمثال (٦ : ٦-٨) الذي كان محل اقتباس متواتر من جانب رجال الكنيسة البروتستانت، لدرجة أنه صار النص الأساسي لما يسمى أخلاقيات العمل البروتستانتى: «أذهب إلى النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيماً. التى ليس لها قائد أو عريف أو متسلط. وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها».

وسرعان ما تمردت بعض أجزاء إمبراطورية داود المصغرة، وعند موته انقسمت إلى اثنتين: الشمالية (التي احتفظت باسم إسرائيل)، والجنوبية (مملكة يهودا). وهكذا تم عقاب الشعب المختار على عصيانه مرة أخرى بسوء الحال.

وقد أدى انفصال مملكتى إسرائيل ويهودا إلى أن يكون لكل منهما تاريخ منفصل، وكل منهما محكوم بقوة ونفوذ الجيران الوثنيين الأقوى، الآشوريين أولاً ثم البابليين (كما تدخل المصريون أيضاً). وتلت ذلك فترة طويلة من الحروب، والتحالفات والأحلاف الفاشلة، التى كانت تهدف إلى التوافق مع الآشوريين. وبرز نبي بعد آخر لكى يحذر الشعب المختار بأن مغازلتهم المتزايدة للآلهة الوثنية الأكثر إثارة لجيرانهم - الذين كانت عبادتهم تتضمن عادة عنصراً جنسياً قوياً - سوف تجلب عليهم الهلاك.

وأكثر هذه الصراعات إثارة وبقاء فى الذاكرة بين الخير والشر (كما رآها راوى الكتاب المقدس) كانت هى الصراع المرير بين النبي إيليا والملكة إيزابيل، زوجة الملك أهاب ملك المملكة الشمالية، وهى النمط الأصلي للمرأة الخطيرة، والتى توصف بأنها عاهرة وشريرة؛ إذ كانت تعارض رب إسرائيل وقتلت عدة مئآت من أتباعه (الذين يسميهم النص الأنبياء): وقد تفوق إيليا فى السحر على أتباع بعل فى

منافسة شاذة غير مألوفة على جبل الكارمل، ثم قتل عدة مئات منهم (يسمون الأنبياء أيضاً) بدوره. وهددته إيزابيل بالقضاء عليه، ورد عليها بأن لعنها، قائلاً: «إن الكلاب سوف تأكل لحمها». وسرعان ما حدث هذا، ولم يتبق منها شيء يمكن دفنه. ولا تجسد إيزابيل مجرد الكراهية الدينية للعروض المكشوفة للممارسة الجنسية الأنثوية، فهي تجسيد أيضاً للإغراء والغواية التي تحملها الديانة الوثنية، مع طقوسها الجنسية السحرية والآلهة المزيفة التي تنتظر غواية الإسرائيليين وجذبهم بعيداً عن عبادة الرب الحقيقي.

وتعاود إيزابيل الظهور في سفر الرؤيا باعتبارها امرأة تمارس الرذيلة والزنا، وبذلك فهي نمط طبقه المبشرون البروتستانت بسهولة على الكنيسة الرومانية وطرقها الشريرة كما افترضوا. كما أنها علامة على نوع أكثر حدقاً من الروابط: وهي الرابطة بين الخطيئة الجنسية وعدم الإيمان الديني. ولا يهتم العهد القديم كثيراً بالخطيئة الجنسية في حد ذاتها، أو على الأقل ذلك النوع من العلاقة الجنسية العادية. ففي مجتمع أبوى يعرف تعدد الزوجات، فإن الرجل الذي يريد أن يضاجع امرأة غير متزوجة، سواء كان هو نفسه متزوجاً أم لا، عليه أن يتزوجها، وهو ما يتم بالاتفاق مع أيها. وكان الرجل الذي ضاجع امرأة غير متزوجة قبل الزواج أو خارج الزواج يجبر على الزواج منها، إذا ما كانت امرأة ذات مكانة، وإلا يمكنه أن يجعلها محظيته، أو كان عليه أن يدفع لوالدها نوعاً من الغرامة. وسفر الخروج (٢٢: ١٦-١٧) يقرر: «وإذا راود رجل عذراء لم تُخطب واضطجع معها يمهراً لنفسه زوجة. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى».

وكان الرجل الذي يضاجع امرأة متزوجة من شخص آخر يُدان بارتكاب الزنا، ويمكن رجم الاثنين بالحجارة حتى الموت. ولكن الزنا يكون على حسابها وليس على حسابها، ما لم تكن المرأة التي ضاجعها متزوجة بالفعل من رجل آخر؛ لأن الرجل المتزوج لا يمكن إدانته بالزنا. ولم يكن أحد يهتم برضاء المرأة وموافقتها، ولكن إذا كانت تعتقد أن جسدها ملك للآخرين، فمن المفترض أنها لم تكن تهتم هي نفسها بالموافقة كثيراً. ومن الأمور ذات الدلالة أن الاغتصاب، بحد ذاته، لم يرد ذكره باعتباره جريمة في العهد القديم على الإطلاق.

هذه المعايير المزدوجة المتطرفة لا تبدو معقولة سوى إذا ما كانت المرأة تعتبر ملكية للذكر، فإذا كانت هي (أو قدرتها الجنسية) «مملوكة» لشخص آخر، فإن مضاجعتها إذن تكون مشابهة لعملية السرقة، فإذا لم تكن مملوكة لأحد آخر فإنه يمكن الحصول عليها بترتيبات مالية مع أبيها الذي «يبيع» عذريتها إلى زوجها الجديد، ومن ثم فإن فقدان العذرية يدمر قيمتها.

كانت للتطبيق الصارم لهذه القواعد في المجتمع البيوريتاني في نيوزيلاند نتائج متساهلة بطريقة غير متوقعة. ويسجل جون وينشروب حاكم ماساشوستس في يومياته ليوم ٢١ يونيو ١٦٤١ م: «برز سؤال في المحكمة حول عقاب زنا الأعزب؛ لأنه حسب قانون الرب، كان على الرجل أن يتزوج المرأة فقط، أو يدفع مبلغًا من المال لأبيها؛ ولكن القضية المطروحة بين خادمين، وتم جلدتهما بالسياط لأنهما أساءا استخدام منزل سيدهما . . .».

وأشهر حالة زنا من الفترة البيوريتانية هي الحالة الروائية لـ «هيوستير بيرين» التي ألست الثوب القرمزي الفاضح في الرواية التي تحمل هذا الاسم للمؤلف نانثينال هوثورن. فقد كانت متزوجة (على الرغم من أن زوجها كان قد اختفى)، وأنجبت طفلًا من رجل آخر لم يتم الكشف عن هويته. وتحت حكم قانون العهد القديم، الذي تقبله البيوريتان في ماساشوستس ولكن لم يطبقوه بصرامة، كان ينبغي رجمها بالحجارة حتى الموت. وكان الحكم الذي أصدره قانون ماساشوستس أن «تجلد على ظهر عربة عبر شوارع البلدة، وترتدى شارة عليها الحرفين AD تقطع في ثوبها على كمها الأيسر». وفي هذه الحالة جعل هوثورن الحكم على هيوستير بيرين يصدر من الحكام بفترة من الخزي العام. بحيث تقف على مشنقة البلدة. مع إلزامها بأن ترتدى حرف A على ثوبها طوال الوقت. وتخفف بيرين من عقوبتها وتحاول عليها بأن تطرز حرف A بطريقة فاخرة وترتديه لا بخجل وإنما بفخر يتسم بالتحدى.

وفي مجتمعات العهد القديم وتلك المجتمعات التي حذت حذوها، كان الرجل الذي يتزوج يتمتع بحقوق جنسية على زوجته، بيد أنها لم تكن لها حقوق

جنسية عليه . ومعاملة النساء باعتبارهن ممتلكات للذكر في مثل هذا المجتمع كانت بدورها جزءاً من نظام للملكية والوراثة داخل العائلات ؛ إذ كانت تضمن الحفاظ على ثروة العائلة ؛ إذ إن الرجل لا يريد أن يخلفه أبناء رجل آخر نتيجة زنا زوجته . وتضمن العذرية عند الزواج أنها ليست حاملاً من رجل آخر .

والزنا، الذى فهم فى المعنى المسيحى اللاحق بأنه يعنى المضاجعة خارج نطاق الزواج، ليس مفهوماً وارداً فى العهد القديم . فحيثما ترد الكلمة، تعن عادة المجامعة الجنسية مع عاهرات المعبد، أو فى أية احتفالات أخرى تكريماً لآلهة الخصوبة الوثنية . وهى بهذا ليست جريمة أو خطيئة جنسية بقدر ما هى دينية . وكان الملوك والأنبياء الذين قاتلوا ضد انجذاب شعبهم صوب الديانة الوثنية التى اضطبغت بالصبغة الجنسية بدرجة عالية والتى كانت تحيط بهم من كل جانب، لا يهتمون أساساً بالأخلاقيات الجنسية، بالمعنى الحديث ؛ إذ كانوا يريدون لإسرائيل أن تبقى مخلصه لربها . وقد كانت مضاجعة إحدى عاهرات المعبد بمثابة مضاجعة الرب الذى تمثله .

ولا أحد يجسّد تلك الغواية الجنسية الوثنية أفضل من إيزابيل الجميلة . ومن الواضح تماماً أن إيليا لم يكن يعارضها ؛ لأنها كانت شهوانية بهذا الوضوح، على الرغم من أنها كانت كذلك بصورة واضحة . كان يعارضها لأنها سحبت العبرانيين صوب الأصنام الزائفة . ولكن فى التبشير الهروتستانى، الذى يعكس النفور المانوى الشديد لكل الأمور الجنسية والذى كان من خصائص الهيريتان وإلى حد ما من خصائص كل الفرق المسيحية أيضاً، كانت إيزابيل قد صارت النمط الأصلى للغواية الأنثوية . وكل امرأة كانت تتجشم عناء أن تبدو ذات جاذبية جنسية كانت تضع نفسها فى موضع المقارنة معها، ويتم تذكرتها بمصيرها المرعب، لقد صارت موضوعة للنساء أن تلبسن ثياباً فضفاضة . كانت الزينة تعتبر من عمل الشيطان .

ومساواة الزنا بعدم الإخلاص للرب عملة ذات وجهين . وهناك تراث مواز فى العهد القديم للفهم التدريجى لعلاقة الرب مع الإسرائيليين بأنه يشبه علاقة الزوج والزوجة . ليس مجرد الحب الرومانسى، ولكن الزواج بكل تقلباته . ويصير هذا

واضحاً من النبی هوشع فصاعداً. فقد بدأت أفكاره مع تأملاته فى عدم إخلاص زوجته، التى سامحها عليها. وعلى الرغم من ألمه ظل مخلصاً، وقادته هذه الأزمة التى اعترت زواجه إلى التفكير فى حب الرب للإسرائيليين، وهناك صورة قلمية مؤثرة كتبها بيتر كالشو كوريسى فى «Who is Who in The Bible» :

«وجه هوشع ملاحظة حنونة نسبياً على الرغم من أنه حمل حملة شعواء ضد عبادة الأصنام، والرفاهىة، والمجون، وانعدام مسئولية الحكّام الذين خانوا الثقة فيهم. وحث إسرائيل على التركيز على الإصلاح الدينى والأخلاقى ووقف الانشغال بالسياسات العالمية. . . فقد كان يؤمن بأن وظيفة الرب هى أن يوقع العقاب ولكن أيضاً إظهار الرحمة، وأن الرب مشدود فى طريقين بسبب خطايا إسرائيل وبسبب معاناتها. ولم يكن هوشع نفسه رجلاً سعيداً، كما أنه على عكس سجايا الأنبياء العبرانيين، كانت حياته الخاصة مشتبكة بصورة مربكة مع نبوته، فقد كان مأموراً بأن يتزوج عاهرة هى جومر التى رُزق منها بثلاثة أبناء، وأن يخلص امرأة ساقطة ربما كانت هى جومر، وقد انحرفت مجدداً أو ربما كانت عاهرة أخرى. وسواء كان يعرف أو لا يعرف ماضى جومر قبل أن يتزوجها، فقد صار معادياً للممارسة الجنسية غير المنظمة وطوّر مشابهة بين الزواج الدنيوى والعلاقة بين الرب وشعبه المختار تتألف من الود وخيبة الأمل».

هذه الفكرة الجوهرية، بينما توضح العلاقة بين شعب الرب والرب نفسه، لتكشف أنها علاقة غفران ومسامحة وود ورقة وعلاقة قوة فى الوقت نفسه، فإنها أيضاً ترفع من مكانة الزواج؛ إذ إن الاضمحلال التدريجى فى تعدد الزوجات وسيادة الزواج من واحدة فقط (الذى كان قد رسّخ تماماً فى زمن العهد الجديد، على الرغم من أن تعدد الزوجات لم يمنع نهائياً فى اليهودية حتى القرن الحادى عشر الميلادى) قد تم ربطه مباشرة بهذا الدفع من شأن الزواج سيراً على نهج هوشع، كما تم ربطه أيضاً بطريقة غير مباشرة بارتفاع شأن المرأة تبعاً لذلك.

وحينما اعتبرت المسيحية أنها حلّت محل اليهودية، انتقلت هذه العلاقة بين الرب وإسرائيل بشكل تنميطى إلى العلاقة بين الرب والكنيسة (أو تحديداً بين

المسيح والكنيسة)، بيد أنها لم تحتفظ بفكرة أن الكنيسة يمكن من حين لآخر أن تكون غير مخلصه، أو أن المسيح قد يحتاج إلى مسامحتها. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الكنيسة على أنها عروس لا تشوبها شائبة، عاجزة عن ارتكاب الخطيئة (الجزء «المقدس» من قائمة الصفات التي تتحلى بها الكنيسة في العقيدة «كنيسة كاثوليكية وحوارية واحدة مقدسة»). وبدلاً من مشابهة حقيقية لحياة الزواج، تصير العلاقة بين المسيح والكنيسة، مثل الحب الرومانسى فى الخيال الشعبى، شهر عسل دائماً.

ولا شك فى أن هذا أضعف قيمة المجاز والاستعارة، كما أنه فرض رؤية نظرية للكنيسة تتناقض مع المؤسسة الفعلية المتكبرة والخطئة وغير المخلصة غالباً التى نعرفها من خلال تاريخ الكنيسة. وثمة قدر كبير من سوء الفهم، بعضه تم خلقه عمداً، قد فاض من هذا الانفصام، وما يزال يتدفق؛ إذ إن النظرية تركز على فهم ميتافيزيقى ودينى بأن الكنيسة هى علامة خارجية، ربما تكون جزئية أو معيبة، وحقيقة داخلية، ينبغى أن تكون كاملة. وقد رفض البروتستانت الأوائل هذه الغيبيات المقدسة، لسبب جوهرى يرجع إلى رفضهم اللاهوت الكاثولىكى عن طقس التناول- وهو الذى يميز بين العلامة الخارجية للطقس المبارك، الخبز والنبىذ، والحقيقة الداخلية التى هى دم المسيح وجسده. وحتى اليوم، عندما تتحدث الكنيسة الكاثوليكية عن نفسها، فإنها تتجه إلى أساس الكنيسة الخفية (الكاملة)، بدلاً من المظهر الخارجى المرئى (الذى يكون غالباً بشرياً أكثر من اللازم). ولهذا السبب، فإن القاتيكان فى اعتذاره بمناسبة الألفية الثانية لنزعة معاداة السامية لدى الكاثوليك، وجه اللوم إلى «أعضاء الكنيسة» بدلاً من «الكنيسة» ذاتها، وهو تمييز ترك بوضوح كثيراً من اليهود بإحساس أن الاعتذار لم يكن من القلب تماماً.

والمذهب البروتستانتي، بينما لا يعرف «الكنيسة» بأنها المؤسسة التى تحمل ذلك الاسم وتتمركز على روما «وإنما العكس»، فإنه يطبق على مفهومه الخاص للكنيسة «المبدأ اللوثرى»، بمعنى أن الكنيسة تحتاج إلى أن تكون فى عملية إصلاح

مستمرة، وهذا أقرب إلى نموذج العهد القديم عن شعب الله المختار. إنها علامة على الكنيسة الكاثوليكية التي بدأت تتحرك صوب هذا الفهم للكنيسة أن مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥ م)، بينما يستخدم أيضاً مصطلحات «الشعب المختار» للدلالة على نفسه بقدر أكثر كثيراً عن ذى قبل، فإنه أيضاً مضى شوطاً في اتجاه المفهوم اللوثرى عن الإصلاح المستمر بأن تبنى نفس المعادلة عن التطهير المستمر. أما ما لم تفعله حتى الآن لكي تجعل نموذج العهد القديم عن النبوة مناسباً لها، وهى أن شخصاً ملهماً يمكن أن يقف فى مكان الأنبياء ويكون ناطقاً باسم الرب لعمل التطهير المتواصل، بيد أن هذا ربما يكون تطوراً يمكن التطلع إليه فى المستقبل. وتحتاج الكنيسة الكاثوليكية إلى هوشع آخر، لا لكي يخبرها بعريس مولع دائماً بجمال الكنيسة، ولكن يخبرها عن زوج كسير القلب يسامح زوجته غير المخلصة مرات ومرات.

والى أن حولت الدراسات الحديثة فى الكتاب المقدس التفسيرات غير المقبولة، كان من المفترض أن هذه العلاقة الزوجية الترميزية (الرب - إسرائيل يساوى الزوج - الزوجة) تشرح وجود بعض الشعر فى العهد القديم بشكل صريح، وهو ما يسمى «نشيد الأنشاد» أو «نشيد سليمان»؛ إذ إن المشاعر الرومانسية التى يرد وضعها كان يفترض أنها إشارة مجازية أو ترميزية إلى الزواج العاطفى بين الرب وإسرائيل (أو بين المسيح والكنيسة). والحقيقة أن هذا التفسير مفتقد فى العهد القديم، ويبدو أنه ربما لم يخطر ببال الباحثين اليهود حتى سمعوا الباحثين المسيحيين يطبقونه على الكنيسة فى القرن الثانى بعد الميلاد تقريباً. وفى كل من الحالين ربما كان الدافع هو تفسير نص يبدو أنه يطرئ الشهوة الجنسية، وهى فكرة لم تكن السلطات الدينية اليهودية أو المسيحية مرتاحة إليها.

والتفسير القائل بأن الكاتب، ربما يكون الملك سليمان نفسه، كان يحاول أن ينافس طقوس الإخصاب الكنعانية كان شائعاً لفترة من الزمان ولكنه غير مقبول الآن. وهناك مشابهاة فى أشعار الحب المصرية القديمة، ولكنها ليست اقتباسات مباشرة؛ إذ إن «نشيد الأنشاد» بقدر ما يحمله من دور تعليمي

بالمصطلحات الدينية ، فإنه كان يوضح أنه لا يوجد شيء خاطئ في الرغبة الجنسية بحد ذاتها ، ولا أن الرب يغضبه أن يستمتع الرجال والنساء ببعضهم البعض بهذه الطريقة . وهناك أيضاً مساواة بين رغبة الرجل في المرأة أو رغبة المرأة في الرجل ؛ إذ إنها ليست علاقة سيادة أو امتلاك ، ولكنها علاقة عاطفة ، ورغبة وإخلاص متواضع . ويفكر الباحثون الآن بأنه من المرجح أن «نشيد الأنشاد» قد تم جمعه من مقاطع كانت تؤدي في الأصل للتسلية في احتفالات الزواج ، وهذه عينة دالة على الأسلوب :

«أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك ، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد ، أسنانك كقطيع الجوائز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة مُثَمِّم وليس فيهن عقيم ، شفتاك كسلكة من القرمز ، وفمك حلو ، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك ، عنقك كبرج داود المبني للأسلحة ، ألف معجن علق عليه كلها أتراس الجبابرة ، ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن ، إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان ، كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة .

هلمى معى من لبنان ، انظري من رأس أمانة من رأس شنير وحرمون من خدور الأسود من جبال النمر ، قد سبيت قلبي يا أختي العروس ، قد سبيت قلبي بإحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك . ما أحسن حبك يا أختي العروس كم محبتك أطيب من الخمر ، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب ، شفتاك يا عروس تقطران شهداً ، تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان» (نشيد الأنشاد ٤ : ١-١١) .

والنشوة غير المكبوتة التي يحملها النص تعنى أنه لم يكن من النصوص المفضلة لدى أى مبشر يوريتانى ، كما أنه لم يكن يعطى قدراً كبيراً من الثقل فى النظرة الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن المتعة الوحيدة فى الجنس هى إنجاب الذرية ، وأن هذا الولع الزائد ، حتى فى فراش الزوجية ، كان خطيئة . والتزول بـ «نشيد الأنشاد» إلى جعله مجرد مجاز لاهوتى ، يوضح مدى الحب الكثير الذى أحبه الرب

لإسرائيل (أو المسيح للكنيسة)، كان وسيلة مناسبة لدفن ابتهاج الشاعر الواضح بالشهوة الجنسية.

وبمرور الوقت انعكست هذه الموافقة المتساهلة تجاه النساء والزواج والجنس في العهد القديم على المواقف تجاه الحرب، فالواقع أن ذلك تجلى في زيادة عامة في الحكمة وتناقص عام في الوحشية عبر المسرح. فقد كانت التطورات السياسية والعسكرية بمثابة المهماز، بيد أن النتيجة تمثلت في كَمّ من الأدب الديني أنتجه أنبياء بنى إسرائيل الكبار والصغار، يتميز بالعمق والأصالة التخيلية فاق الأدب في أية حضارة أخرى آنذاك، وبدأ كما لو أن مصائب الشعب، التي تسببت فيها سلسلة من الملوك الصغار الذين كانوا إما حمقى وإما أوغاداً، قد ولدت انفجاراً مساوياً للطاقة الإبداعية لصالح الخير من جانب الرجال المتعلمين والحكماء في ذلك الزمان (كان بعضهم، بسبب حكمتهم، يبدون مجانين في عيون معاصريهم). كان معظم هذا الأدب مكرساً لتصحيح بلاهة الملوك وتحذير الشعب من عواقب حماقتهم، بيد أن مجاله تعدى سياقه المباشر، ومثل الفن العظيم في كل مكان كان يتحدث عن الحالة الإنسانية في كل الظروف. ولا شيء أثر على الفضاء العقلي للثقافة الغربية بقدر ما أثرت المزامير، والأمثال والنبوءات التي تولدت عن الأحداث المعروفة باسم «النفي البابلي» (أو الأسر البابلي)، وهي فترة أزمة سياسية وعسكرية حادة في حياة بنى إسرائيل أوشكت فيها على الهلاك إلى الأبد. وكان في تلك الفترة أن تمت كتابة الجزء الأكبر من العهد القديم، وتحريره على الصورة المعروف بها.

وإذ لاحظنا بربرية الإسرائيليين القدماء، وحوادث الاغتيال والمذابح التي كانت تتم بشكل روتيني بموافقة الرب أو بناء على أمر منه، فمن المهم أيضاً أن نتعرف على عمقهم وإدراكهم الأخلاقي المتنامي، والشعور بالعدالة، وإدراكهم لكوامن الشفقة في الحياة الإنسانية، وأهمية الاعتماد المتبادل. وإذا كانت البربرية مثلاً خطيراً للأمم اللاحقة التي ظنت أنها مختارة من الرب، فإن النظرة الأخلاقية والروحية المتنامية التي كانت قد بدأت تميز الإسرائيليين القدماء أيضاً كانت عاملاً قوياً في تطور الحضارة في ظل المسيحية.

وأولئك الأنبياء كانوا لا يألون جهداً وهم يؤنبون حكام زمانهم . ومن المحتمل تماماً أن البروتستانت فى بريطانيا وبعدها فى أمريكا ساروا على مثالهم ، واعتبروا أن لهم حقاً إلهياً لأن يصرحوا بما فى أذهانهم عن أخطاء حكامهم .

وفى بعض الأحيان كانت وظيفة «النبى» - تكاد تعتبر وظيفة ذات صلاحيات - جزءاً من مؤسسة المعبد فى القدس . وإذا ما اعتبرنا أن مهمة النبى الرئيسية كانت توبيخ الحاكم والشعب جراء سلوكهم الردىء ، فقد كانت نوعاً من «المعارضة الرسمية» . والكلام عن حرية الحديث مبالغه على أية حال ؛ لأن الأنبياء كانوا يدينون الملوك ويواجهون الهلاك وربما كانت حياتهم ثمن ذلك . ومع هذا إدانتهم واردة فى روايات العهد القديم على نحو مطوّل ، عادة على أنها كلمات ينطق بها البشر ولكنها آتية من الرب مباشرة ، ودائماً يكون كاتب النصوص المقدسة فى جانب الأنبياء . وباعتبار العهد القديم سجلاً للنبوءة ، فإنه عبارة عن كتالوج قوى المعارضة ضد سوء استخدام الحكم . ولأنه كان يعتبر فى المجتمعات البروتستانتية «كلمة الرب» ، فإن هذا أسبغ على المعارضة (على الأقل حينما كان التعبير عنها يتم باسم الديانة الحقيقية) خاصية مقدسة . وربما لم تكن تروق للملك ووزرائه ولكن مع وجود مثل هذه الأمثلة المأخوذة من الكتاب المقدس ، فإنه لم يكن بوسعهم أن يجادلوا بسهولة بأن توجيه النقد إلى الملك كان أمراً شريعاً أو مناقضاً لإرادة الرب .

وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا مدى انغماس العامة فى الكتاب المقدس ، فإن مفهوم التوتر المستمر بين الملك والنبى ، بين الحكومة والمعارضة ، كان تأثيراً تشكيمياً مهماً فى ظهور الديموقراطية البرلمانية فى إنجلترا ، وعلى الرغم من أن النقد الموجه إلى سياسة الدولة صار علمانياً عندما صارت مواضيع الشئون السياسية نفسها علمانية ، فإنها برزت فى البداية عندما كانت كل الشئون السياسية تقريباً متداخلة مع الدين . ونقص المجاز النصى المماثل فى الجدل السياسى فى الفهم الكاثوليكي للنبوءة الواردة فى الكتاب المقدس ، ربما يشرح السبب فى أن الديموقراطية البرلمانية كانت على مدى فترة طويلة تعتبر نظاماً أجنبياً وغريباً فى البلاد الكاثوليكية ؛ إذ إن تراث النبوءة معاد للاستبداد الملكى - بمعنى أن الملك لا

يمكن أن يخطئ. - قدر معاداته للاستبداد الكنسى - بمعنى أن الكنيسة لا يمكن أن تخطئ. وكل من يعرف العهد القديم ويطبقه على موقفه الخاص يعرف الأمر بطريقة مختلفة: فالملوك والكنائس يرتكبون الأخطاء طوال الوقت. وهذا قد يفسر السبب في أن المجتمعات الكاثوليكية كانت أكثر انفعالية وأكثر ثورية من المجتمعات البروتستانتية، كما يفسر السبب في أن المجتمعات البروتستانتية كانت تؤخذ على أنها أشد إخلاصاً للكتاب المقدس. يقدم النظام البرلماني الطريقة التي يمكن أن تستجيب بها المؤسسات الحكومية للضغط، وبدونها، ليست لديها سوى بدائل قليلة للمقاومة حتى الموت، أو الانهيار.

وربما يفسر هذا أيضاً السبب في أن البروتستانتية القائمة على الكتاب المقدس قريبة الشبه بفكرة الحرية والتحرير. وهذه الحالة ليست أكيدة تماماً، فباسم البروتستانتية تم ارتكاب الجرائم الفظيعة في حق الإنسانية، وإذا ما وضع المرء البروتستانتية ضمن الأيديولوجية الدافعة إلى استعمار أفريقيا، مثلاً، أو القضاء على المقاومة المحلية ضد التوسع الأمريكى باتجاه الغرب، أو التورط الأنجلو-أمريكى فى الرق، فإن مثل هذه الجرائم قد تفوق تلك الجرائم التي ارتكبت باسم الكاثوليكية (على الرغم من فظاعتها هي الأخرى). لقد كانت الكاثوليكية هي الراية التي في ظلها اضطهدت مارى الدموية الشهداء البروتستانت في منتصف القرن السادس عشر، وهي قصة أرّخ لها بشكل حيوى على مرّ السنوات چون فوكس، واضطهادات الهيجونوت في فرنسا، أو مصير اليهود والهراطقة في إسبانيا تحت فظاعة محاكم التفتيش. ولكن في العهود البروتستانتية التالية، تم إعدام المزيد من الكاثوليك في انجلترا وويلز بقدر يفوق العدد الكلى لضحايا الملكة مارى. وسواء كان الموت شتقاً، أو الإغراق، أو تقطيع الجسد إلى أربعة أجزاء (وهو المصير الذى لقيه معظم الكاثوليك) فإنه لم يكن أقل قسوة من الموت حرقاً (الذى كان الوسيلة المفضلة للتخلص من البروتستانت). والنقطة هنا ليست مسألة من قتل معظم الناس، أو مسألة أى شكل من أشكال الإعدام كان أشد إيلاماً، وإنما هي أن الكاثوليك تحت حكم إليزابيث الأولى أو جيمس الأول، لم يكونوا أكثر حرية في التعبير عن آرائهم مما كان البروتستانت تحت حكم مارى. لقد كان هناك

حديث مستفيض عن «التسامح» عندما اقترب القرن السابع عشر من نهايته، بيد أنه لم يكن أبداً تسامحاً تجاه الكاثوليك - باستثناء فترة حكم جيمس الثاني القصيرة. وبعبارة أخرى، كان تسامحاً إزاء أولئك الذين كان من الأسهل التسامح إزاءهم، أى تسامح بثمان بخس (*) .

كانت هناك جرائم الكاثوليك، ولا يمكن للمرء أن يقول المثل عن جرائم الكراهية الأخرى التى تقف ضد اسم البروتستانتية الطيب فى انجلترا وأمريكا القرن السابع عشر - اضطهاد الساحرات. ومثل هذا التحرر أو الحرية كما زعمتها البروتستانتية، كان تحرراً لشعب الرب، تماماً مثل الحال فى العهد القديم. ومعظم ما نُهى عنه فى شرائع موسى، بما فى ذلك الحرية من العبودية، لم يكن ينطبق سوى على العبرانيين، وأى واحد خارج هذه الحدود، سواء كان غريباً أو خائناً، لا يتمتع بمثل هذه الحماية، والكاثوليك (لكونهم أعضاء فى شعب مختار منافس) لم يكونوا تحديداً من ضمن هؤلاء، ولا اليهود (لأسباب مشابهة). وكانت الساحرات أشد سوءاً من الاثنين؛ لكونهن عدوات سريات بالداخل أكثر من الأعداء الواضحين فى الخارج. فالسحر، مثل الهرطقة، جريمة فكر: فالفعل نفسه خفى، على الرغم من أنه يمكن استنباطه من أدلة أخرى.

وعلى مدى الألف سنة الأولى من المسيحية كان السحر يعتبر إما مجرد استمرار للاعتقاد الوثنى فى السحر، أو مجرد عبث. هذا على الرغم من المنع الواضح فى سفر الخروج (٢٢: ١١) «لا تدع ساحرة تعيش»، وهو ما يشير ضمناً إلى أن الساحرات كن حقيقيات. وكل من الرومان ومحاكم التفتيش الإسبانية لم يأخذ السحر على محمل الجد، كما أن المناطق الأوروبية تحت هيمنة الرومان والإسبان لم تشهد موجات الهياج المجنون ضد السحر والتى اندلعت فى الأماكن الأخرى، لا سيما فى ألمانيا (تحت الإشراف الكاثوليكي إلى حد بعيد) واسكتلندا (تحت

(*) وضع المفكر الإنجليزى المشهور «جون لوك» كتاباً صغيراً عن التسامح فى نهاية القرن السابع عشر، وفى نهاية الكتاب أوضح أن هذا التسامح يستثنى منه: اليهود والأتراك (المسلمون)، ومن لهم ملك خارج البلاد (يقصد الكاثوليك والبابا). ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة كتاب «رسالة فى التسامح» الذى نشرته «دار الغرب الإسلامى»، وترجمه وقدمه بدراسة متميزة عبدالرحمن بدوى.

الإشراف البروتستانتى)، وبلغ حرق الساحرات الذروة فى انجلترا خلال فترة الحكم البيوريتانى تحت كرومويل . كما أن محاكمة سالم الشهيرة التى ضمت مائة وخمسين متهمًا فى ماساشوستس ، والتى كانت محكمة بالحرفية البيوريتانية المستندة إلى الكتاب المقدس أيضًا ، حدثت فى وقت لاحق سنة ١٦٩٢م ، وأسفرت عن شق تسعة عشر - وبعدها بوقت غير طويل صدر العفو عن عدد مماثل .

والمعارضة المتوحشة من جانب البيوريتان للسحر تم تفسيرها بطرق مختلفة ، وهى تقدم مجالاً غنياً للحالات التى يلتقطها المحللون النفسيون وعلماء الأنثروپولوجى . وثمة تفسير دينى يمكن أن يكون مؤداه أنها نتاج للإيمان بالقدر ؛ إذ إن أولئك المختارين - الذين مقدر لهم سلفاً أن ينالوا الخلاص - كانوا بطبيعة الحال فضوليين بشأن أولئك الذين ليسوا كذلك ، والذين لا يمكن أن يكونوا جميعاً من الرومان الكاثوليك ؛ ذلك أن من ينال الخلاص ، والملعون ، كانا يتزاحمان بالمناكب سويًا فى غمار الحياة ، ولا يكاد كلٌ منهما يقدر أن يطلب من الآخر أن يتعد . ومن هذا فإنه إذا كان من سينالون الخلاص قد اختارهم الرب فعلاً ، فإن الملعونين إذن كانوا ، بالاستنباط ، مختارين من الشيطان بالفعل . ولكون الشيطان ماکراً ، فإنه لم يكن ليكشف عن اختياره بهذا الوضوح ، بأن يجعلهم جميعاً مثلاً أشراراً إلى أبعد مدى . ولذلك فإن بعضهم لا بد وأن يعيشوا مظهرًا عيشة تواضع وتقوى ، بينما يحافظون على روابطهم مع الشيطان سرًا . وكان جزء من عمل الشيطان هو أن يخطف أرواح المختارين من الطريق إلى السماء - فالقدر لم يكن سوى توضيح لحالة من النعمة يمكن خسرتها ، وليس ضماناً أكيداً للخلاص أيًا كانت الحال . ومن ثم فإن أولئك الذين انخرطوا فى أعمال السحر كانوا إما «مسيحيين ساروا فى الطريق الخطأ» - وهم يمكن التبشير بينهم ، وجعلهم يعترفون ، وإعادتهم إلى المسيحية ومعابقتهم ثم يتم التكفير عن ذنوبهم فى النهاية - أو أولئك الذين قدر لهم سلفاً أن تنالهم اللعنة ، ولا يمكنهم التوبة ، ولا يمكن بعد التظاهر بهذا أن يعودوا إلى دينهم . وتبدو فكرة أن السحر بقاء لديانة وثنية سابقة فكرة خيالية ؛ إذ لا توجد وسيلة يمكن أن تكون بها

«ساحرات سالم» الشهيرات، مثلاً، على اتصال بديانة إنجليزية سابقة على المسيحية.

وحالة البارانونيا بشأن الساحرات التي أمسكت بتلايب أوروبا ومست نيوانجلاند على مدى مائتي سنة لم تلبث أن خفت، بعد أن أودت بحوالي خمسين ألف ضحية. والاعتقاد في السحرة كان يتطلب اعتقاداً نشطاً في الشيطان، أي روح شريرة قادرة على أن تتخذ شكلاً إنسانياً أو حيوانياً يتجول في العالم لينشر الشر، وتقيم الساحرات معه علاقات جنسية. والشيطان بطبيعة الحال، كان مرتبطاً بالمسيح الدجال بشكل وثيق. وفي إنجلترا وأمريكا الهروتستانيتين، تصادفت قمة الهياج لمطاردة السحر مع ذروة البارانونيا تجاه الكاثوليكية، لا سيما الخوف من أن كثيرين من الناس الذين تظاهروا بأنهم ليسوا كاثوليكاً كانوا كذلك بالفعل. وكانوا معروفين بأنهم أتباع «الكنيسة البابوية»، والمقصود بهم أولئك الذين توافقوا مع كنيسة إنجلترا دون أن يتخلوا حقاً عن «الديانة القديمة» التي استمروا يمارسونها في السر. وإذا ما وضعنا في اعتبارنا العقوبات القاسية على عدم حضور الخدمات الكنسية في الكنيسة المعترف بها، بما في ذلك خطر الحرمان من الميراث، فإن مثل هذا التوافق المذهبي كان واسع الانتشار.

وكذلك لم يكن الشك الهروتستانى في تشارلز الثانى ونظامه خيالياً تماماً؛ إذ إنه تقبل مساعدة مالية من ابن عمه الفرنسى لويس الرابع عشر، وهى مساعدة كانت مشروطة بأن يتحول إلى الكاثوليكية، وهو ما فعله على فراش الموت. ولكن نتيجة لمناخ الشك السائد هذا كان كل شىء خطأ لا يمكن نسبته إلى السحر يمكن أن يُعزى إلى الكاثوليك وأنشطتهم السرية، أو إلى الكاثوليكية والسحر فى تحالف شيطانى. ففي البداية كان اللوم يوجه رسمياً إلى الكاثوليك بشأن النيران التى دمرت معظم أنحاء لندن سنة ١٦٦٦ م. والأوبرا التى ألفها بورسل تحت عنوان: «Dido and Aeneas»، والتى ربما تكون قد كُتبت قبل موت تشارلز الثانى سنة ١٦٨٥ م، حينما كان الهياج الهروتستانى المحموم لقدم الملك الكاثوليكى جيمس الثانى فى ذروته، كان له دور فى «الساحرة الكبيرة والساحرات

اللاتى يتبعنها»، والذي كان يتم تفسيره دائماً على أنه إشارة إلى التهديد الأسود والمنحوس من جانب البابوية فى الخيال الشعبى .

وفكرة أن الهروتستانتية تقف مدافعة بوضوح عن الحرية فكرة يحيط بها الشك ما لم تكن تعنى، بعبارة أخرى، حرية أن تكون پروتستانتياً طيباً. وحتى فى ذروة محاكم التفتيش الإسبانية، كان الكاثوليكي يستطيع أن يزعم تحديداً مساوياً - أى حرية أن تكون كاثوليكيّاً طيباً. وفى كل من الحالين، فإن الحرية المحدودة التى كانت موجودة كانت تمنح فقط لأولئك الذين هم ضمن «شعب الرب»، مهما كان تعريفه. وأولئك الذين خارج حدوده لم تكن لهم مثل هذه الحرية؛ ذلك أن الكاثوليك لم يكونوا يتسامحون مع الهروتستانت، كما لم يكن الهروتستانت يتسامحون مع الكاثوليك، وعلى العموم لم يكن كلاهما يتسامح مع اليهود.

وعلى أية حال، فسواء كانت كاثوليكية أو پروتستانتية، فإن الحرية كانت لها خصوصية إنجليزية. فالحرية هنا لا تعنى بالتحديد حرية الكلام - إذ إن الإنجليز على مدى فترة طويلة كانت لديهم قوانين ضد الكلام والكتابة المثيرة للشغب - ولكنها تعنى بنية من القوانين التى تضع حواجز ضد سلطات الملك دفاعاً عن الرعية، والميثاق الكبير (الماجنا كارتا) سنة ١٢١٥م لم يكن بداية هذه التقاليد؛ إذ إن كثيراً من متطلباته وضعت فى مصطلحات ترغم الملك على احترام الحقوق القائمة والاتفاقات الموجودة، موضحة أنها قائمة وموجودة منذ القدم، وبعضها موجود منذ فترة ما قبل الغزو [النورمانى ١٠٦٦م]. وأهم الحقوق الممنوحة فى ظل الميثاق الكبير تذهب بطريقة ما لضمان حقوق الرعايا. وتوضح العبارات الحاسمة أن:

«(٣٨) لا يجب على مُحضر فى المستقبل أن يقدم أحداً إلى المحاكمة بمجرد كلامه، دونما وجود شهود موثوق بهم، يُستدعون لهذا الغرض».

«(٣٩) لا يجب القبض على رجل حر أو سجنه أو تجريدته من أملاكه أو تجريمه أو نفيه أو أن يكون ضحية بأية طريقة، كما أننا لن نهاجمه أو نرسل أحداً لمهاجمته، إلا بناء على حكم قانونى من حكّامه، أو بمقتضى قانون البلاد».

«(٤٠) لن نبيع إلى أى أحد، ولن نرفض أو نؤجل لأى أحد حقه أو العدل».

ولم يقم كبير أساقفة كاتربورى، ستيفن لانجتون، فقط بتنظيم احتجاجات البارونات التى أدت إلى الميثاق الكبير، ولكنه تصرف باعتباره أحد الشهود والضامين له (على الرغم من أنه أيضاً خضع للتأكيد البابوى). ولذلك فإنه كان يبدو أحياناً فى أعين زعماء كنيسة العصور الوسطى، كما لو كان يقدم صوتاً تنبؤياً ضد طغيان الملك، وقد حاربت الكنيسة بضراوة للحفاظ على الحرية الكافية لعمل هذا. كان هذا هو الموضوع الأساسى فى النزاع بين هنرى الثانى وسلف لانجتون الشهير فى القرن السابق، توماس بيكيت، وهكذا فإن العبارة النهائية فى الميثاق الكبير تبدأ بتكرار الضمان الذى سبق منحه، بأن الكنيسة الإنجليزية لن تكون تحت سلطة الدولة الإنجليزية:

«وحيث نرغب ونأمر بصرامة أن الكنيسة الإنجليزية يجب أن تكون حرة، وأن الرجال فى مملكتنا سيكون بمتناولهم الحريات المذكورة سابقاً والحقوق والامتيازات أيضاً وبسلام، وبحرية وهدوء، كاملة غير منقوصة، لهم ولورثتهم منا ومن ورثتنا، فى كل الأمور وفى كل الأماكن إلى الأبد، على نحو ما سبق ذكره...».

كذلك أنشأ الميثاق الكبير مجلساً يتألف من خمسة وعشرين من البارونات، كان عليهم مراقبة مراعاة الملك لشروطه، كما كان لهم حق شن الحرب على الملك إذا ما نكث بوعوده. كانت هذه هى الوسائل المختلفة التى بدأ بها الدستور الإنجليزي بناء عوامل الضبط والتوازنات؛ لكى يسحب السلطة المطلقة من الملك، ويعاقبه إذا حاول ممارستها. وهناك علامات لا تخطئها العين هنا على أن البارونات، وستيفن لانجتون بصفة خاصة، كانوا على وعى بنموذج العهد القديم، حيث كان مسموحاً للأنبياء أن يشرفوا، ويحتجوا عند الضرورة، على الطريقة التى يمارس بها الملك سلطاته. وعلى الرغم من أن «الماجنا كارتا» لا يضمن أية رخصة أو موافقة على الجمهورية، فإن الذين وضعوا مسودة الدستور الأمريكى، ودايتير كثير من الولايات الأمريكية منفردة، اعتبروه نقطة مركزية لفلسفتهم؛ إذ إنه أعطى بالفعل موافقة قانونية لحمل السلاح ضد ملك يعوق الحريات التى ضمنها الميثاق، وهو ما

قد يكون السبب في أنه كان دائماً محفوظاً في الذاكرة التاريخية في أمريكا أكثر منه في إنجلترا.

ومن ناحية أخرى فإن النظام الدستوري الإنجليزي بمعارضة «رسمية» دائمة - وهي تسمى بالفعل «معارضة جلاله الملكة المخلصة» - هو أقرب لنموذج العهد القديم حتى من النظام الأمريكي، حيث إن الحزب الموجود خارج السلطة في الكونجرس أو البيت الأبيض لا يرى نفسه في مهمة لمعارضة الحكومة بأي ثمن؛ إذ إن ذلك الدور منوط أكثر بالصحافة الأمريكية.

كان أول الأنبياء هو موسى، ولم يخطر بباله أن ينتقد الحاكم؛ لأنه كان هو الحاكم، ولكن الأعظم كان هو إشعيا الذي خطر ذلك بباله. والحقيقة أنه كان هناك أكثر من واحد بهذا الاسم؛ لأنه بين الأقوال المنسوبة إلى شخص يحمل ذلك الاسم نجد أقوالاً تصف حوادث تبعد عن عصره مئات السنين، وكان إشعيا نبياً مفضلاً لدى الشراح والمعلقين المسيحيين فيما بعد؛ لأن الكثير من نبوءاته كان يمكن أخذها على أنها نبوءة بقدوم يسوع المسيح، مثلما ورد في سفر إشعيا (١٤: ٧) «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل». وأشهر استخدام لإشعيا على هذا النحو ينسب إلى يسوع نفسه:

«فدفع إليه سفر إشعيا النبي. ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه، روح الرب عليّ؛ لأنه مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسرى القلوب لأنادي بالمأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية. وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه» إنجيل لوقا (الإصحاح ٤: ١٧-٢٠).

وقد أسهم إشعيا والأنبياء اللاحقون إسهاماً شاملاً في تطور اليهودية، ولا سيما في التأكيد الذي ظهر بالتدريج على السلوك الأخلاقي والعدالة الاجتماعية باعتبارهما علامة على الاستقامة الحقة (بدلاً من الطقوس المجردة وتجنب التأثيرات الوثنية). وتحت ظل الأنبياء اللاحقين بدأت تبرز فكرة أن القواعد

الأخلاقية التي وضعها الرب تنطبق على الكل وليس على اليهود وحدهم، وأن اليهود عليهم أن يتصرفوا بطريقة أخلاقية تجاه غير اليهود تماماً مثلما هو الحال في سلوكهم مع رفاقهم في الدين. والنموذج الذي أرساه العهد القديم للعدالة الاجتماعية قُيِّض له أن يكون ذا تأثير عميق على التطورات اللاحقة (في القرن التاسع عشر والقرن العشرين) مثل الاشتراكية المسيحية في إنجلترا وحركة الإنجيل الاجتماعي في أمريكا.

ومن نافلة القول، على أية حال، أن نقول إن نموذج العهد القديم في معاملة النساء لم يكن يشكل جزءاً من ذلك النموذج. كما أنه لم يكن، كما هو الحال في الكاثوليكية الرومانية التي تضع مريم العذراء في مكانة سامية (في بعض الأحيان تجعلها مخلصاً مساعداً للجنس البشري مع المسيح) هناك أى ملامح تعويضية في البروتستانتية لتقويم الانحياز القوي للذكر.

وفي الروايتين اللتين يوردهما سفر التكوين عن الخليقة، تصف إحداهما أول ذكر وأول أنثى تم خلقهما في الوقت نفسه، ولكن الرواية الثانية تصف آدم باعتباره المخلوق الأول وحواء باعتبارها خلقت من ضلع أخذ من جسده عندما راح في النوم. ويصف النص آدم باعتباره حاكم حواء (وأحياناً سيدها)، كما أن قصة السقوط تدمغها باعتبارها سبب سقوط آدم عندما أغوته بأن يأكل التفاحة المحرمة.

وكما أن القواعد اليهودية - تفضل الرجال في العلاقات الجنسية وعادات الزواج، كما شرحنا من قبل، فإن الشريعة الموسوية تتضمن العديد من ترتيبات التفرقة الأخرى. فبعد مولد الطفل، فإن المرأة التي وضعت طفلاً ذكراً تظل نجسة على مدى أربعين يوماً، أما إذا وضعت طفلة أنثى فإنها تظل نجسة ثمانين يوماً. وفي الإحصاء يتم حساب الذكور الذين يزيد عمرهم عن شهر، أما البنات فلا يتم إحصاؤهن. وكان الطفل الذكر دون الخامسة يساوى خمسة شيكل، والبنات ثلاثة شيكل. وكان من حق الأبناء وراثته آبائهم، ولا تراث البنات سوى حين لا يكون هناك أبناء، وإذا لم يكن هناك ذرية مباشرة، يرث الإخوة، أما الأخوات فلا ترثن. ويمكن إلغاء اليمين أو القسم الذي تقطعه النساء على أنفسهن بواسطة الآباء أو الأزواج،

أما الأيمان التي يقطعها الرجال على أنفسهم فكانت ملزمة. والمرأة التي تفقد عذريتها قبل الزواج يمكن رجمها بالحجارة حتى الموت، ولكن هذا لا ينطبق على الرجل. والطلاق لا يمكن أن يتم إلا بمبادرة من الرجل، وليس من قبل المرأة. وبعد نهاية النفي البابلي تمت إعادة بناء الهيكل الثاني وفيه منطقة منفصلة أقل مستوى مخصصة للنساء؛ ولم يكن مسموحاً للنساء أن تشهد في ساحات المحاكم. وصار مُحرمًا على النساء أن يتحدثن إلى الغرباء أو أن يظهرن علناً بغير حجاب؛ وهكذا.

وعند بداية العهد المسيحي، حينما أصبحت التنظيمات التفصيلية في العهد القديم تعتبر غير ملزمة للمسيحيين على العموم، كان الباب مفتوحاً أمام الكنيسة البازغة أن تستبعد كل هذه القواعد التي تحبذ التفرقة ضد النساء، وتبدأ من جديد، وبدلاً من أن يحدث هذا تم تثبيت معظم هذه القواعد. وكان القديس بولس بشكل خاص حريصاً على تكرار القاعدة القائلة بأن النساء خاضعات لأزواجهن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تعديل الكنيسة المسيحية مجاز النبي هوشع ليناسبها - وهو المجاز القائل بأن علاقة الرب بإسرائيل مثل علاقة الزوج بالزوجة - قد أكد حتى على أن الزوجات مدينات بالطاعة لأزواجهن كما تدين الكنيسة بالطاعة للمسيح.

وهناك عوامل تفرقة أخرى في العهد الجديد، مثل أن النساء لا ينبغي أن تكن «رأس» الرجال؛ إذ يجب أن تلزم النساء الصمت في الاجتماع، كما أن النساء يجب أن تغطين شعورهن في كل الأوقات، وهلم جرا. وقد مال البروتستانت إلى أخذ العهد الجديد حرفياً مثل العهد القديم، ولم يكونوا قادرين على السماح بالكثير من الانحراف في تفسير مثل تلك القواعد. وصارت البروتستانتية ديانة ذكورية بشكل زائد عن الحد نتيجة لهذا. أما الكاثوليكية، بحريتها في إعادة تفسير النصوص المقدسة، والكثيرات من القديسات اللاتي تعترف بهن، ونظمها الرهبانية الكثيرة القاصرة على النساء وأديرتها القوية، فضلاً عن إخلاصها لمريم العذراء باعتبارها الكائن البشري الأسمى (على الرغم من أنها حملت بلا دنس)، لم تكن أبداً تميل إلى الذكور بمثل هذا الوضوح. ومن ناحية أخرى، فمنذ القرن

الثالث عشر على الأقل كانت العزوبية الإجبارية للقساوسة الرجال قد تركت حكومة الكنيسة الكاثوليكية في أيدي الرجال وحدهم - وهو ما كان يصدق أيضاً على الكنائس البروتستانتية - بل إنها أيضاً تركت هذه الحكومة بأيدي رجال لم تكن لهم علاقة بالنساء كزوجات وبنات . وقد أدى هذا حتماً إلى اتجاه لا ينظر فقط إلى النساء نظرة استعلاء ، وإنما ينظر إليهن متطلعاً أيضاً بطريقة زائدة عن الحد . لقد كانت النساء في الثقافات الكاثوليكية إما متبتلات أو عاهرات ، أو مزيجات من الاثنين . أما في الثقافات البروتستانتية فقد كانت النساء زوجات منزليات .

ولكن لم تستبعد أى من الثقافتين (البروتستانتية و الكاثوليكية) النساء من عضوية شعب الله أو الشعب المختار . ولهذا السبب ، كان عليهن أيضاً أن يكن سوداوات ، أو من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ، أو كاثوليكيات (ولا سيما الأيرلنديات) . لأن تلك كانت ثلاثاً من الفصائل الأساسية التى شعرت بقوة الاعتقاد الإنجليزى أو الأمريكى بأنهم الشعب المختار ، وأن الرب سمح لهم بأن يتصرفوا تجاه الأغيار تماماً مثل موسى وجدعون ويوشع وغيرهم من حكام إسرائيل القديمة .

وتشبيه قارة أمريكا الشمالية بالأرض الموعودة عنصر قوى فى الشعور البازغ بالوطنية الأمريكية ، قبل الحرب الثورية ويعدها . وكان هذا موضوعاً منتظماً فى الخطب والمواعظ الكنسية . وقد أهدى «تيموثى دوايت» كتاب : «قهر كنعان - The Conquest of Canaan» لجورج واشنطن ، بيد أنه لم يولد شعوراً بأنه قال شيئاً جديداً . والتشابه بين أرض كنعان ، التى سكتها بالفعل قبائل عديدة ، ولكن زعم أنها نتيجة هبة ربانية إلى شعب الله المختار الأول ، وهذه الأرض الشاسعة الثرية «الأرض التى تفيض باللبن والعسل» ، كما زعم شعب الله المختار الجديد ، واضح تمام الوضوح .

وربما كان الأمر مختلفاً . ففي فرجينيا ، كان زواج جون رولف ويوكاهونتاس ابنة الزعيم المحلى ، يوحى ببداية علاقة من السلام والمشاركة ، بيد أنه لم يستمر ولكن الانفصال لم يكن خطأ الإنجليزى وحده ؛ إذ إن التدهور الحقيقى بدأ ،

بصورة طبيعية، مع الشعب المختار الممتاز، أى أوائل المستوطنين البيوريتان فى ماساشوستس. وفى البداية أشفق الهنود الحمر عليهم. وهى حقيقة يتم إحياء ذكرها سنوياً فى عيد الشكر^(*). ولكن ردهم الجميل كان سريعاً وقاسياً. ويصف بى براون فى كتابه «Bury My Heart at Wounded Knee» التقدم السريع صوب الصراع والمواجهة فى هذه العلاقة الأكثر مأساوية بين كافة العلاقات الاستعمارية:

«على مدى سنوات عديدة كان هؤلاء الإنجليز وجيرانهم الهنود يعيشون فى سلام، ولكن المزيد من حمولات السفن من البيض استمرت فى القدوم إلى الشاطئ بأعداد كبيرة. وكانت أصوات الفئوس وسقوط الأشجار تتردد أصداؤها فى الأرض التى أطلق عليها البيض حينئذ اسم نيوانجلاند (انجلترا الجديدة). وبدأت المستوطنات تزاحم بعضها بعضاً. وفى سنة ١٦٢٥م طلب بعض المستعمرين من ساموست أن يعطيهم مساحة إضافية من الأرض تبلغ اثنى عشر ألف فدان إنجليزى من أراضى ييما كويد. وكان ساموست يعرف أن الأرض تأتى من الروح العظيمة، وهى بلا حدود مثل السماء وليست ملكاً لأحد. ولكى يسلى أولئك الغرباء بأساليبهم الغربية، أقام احتفالاً لنقل الأرض ووضع علامته على ورقة أعطاها لهم، وكانت تلك أول وثيقة تتعلق بالأراضى الهندية للمستعمرين الإنجليز. ولم يحفل معظم المستوطنين الذين كانوا يفدون بالآلاف فى ذلك الحين بالمرور بمثل هذا الاحتفال، وفى ذلك الوقت الذى كان ماساسويت، الرئيس الكبير لقبائل وامبانواجز، قد مات سنة ١٦٦٢م، تم طرد شعبه إلى البرارى. وتنبأ ابنه ميتاكوم بنهاية جميع الهنود ما لم يتحدوا لمقاومة الغزاة».

وكون ميتاكوم تحالفًا من القبائل الهندية ثم خرج للحرب، وهاجم خمسين مستوطنة ودمر منها اثنتى عشرة. وبعد شهور من القتال، تمكنت نيران البنادق المتفوقة التى بحوزة الرجل الأبيض من تحقيق الهيمنة على القبائل الهندية. فقد قتل رجالها -وعلقت رأس ميتاكوم على عصا فى پلايموث لمدة عشرين سنة- وتم

(*) يحتفل الأمريكيون سنوياً بـ«عيد الشكر»، بمناسبة المساعدة الضرورية التى قدمها لهم الهنود الحمر عند هجرتهم من انجلترا. أما رد الجميل فكان إبادة الهنود وحضارتهم. المترجم.

بيع النساء والأطفال فى أسواق النخاسة ، تماماً مثلما قال الكتاب المقدس أن ينبغي أن يُفعل بهم . ويقول براون : «وعلى مدى قرنين آخرين من الزمان تكررت هذه الحوادث مرات ومرات كلما تحرك المستعمرون الأوروبيون إلى الداخل خلال ممرات «Alleghenies» ومع مجارى الأنهار التى تصب باتجاه الغرب إلى المياه العظيمة (الميسيسيبي) ثم إلى الأوحال الكبرى (نهر الميسورى)» .

ومن وجهة النظر الهندية ، كانت هناك مصيبة واحدة تمثل ذروة كافة المصائب الأخرى فى تاريخ تعاملاتهم مع الرجل الأبيض . ومثلما يعلن ريجينالد هورسمان بصراحة مكشوفة فى كتابه «Expansion and American Indian Policy» «كان الانتصار الأمريكى فى الثورة كارثة على الهنود» . وعند بداية الحرب حسب الهنود أن ما يخشونه من التجار والموظفين البريطانيين أقل مما يخافونه من ملاك الأراضى والمزارعين الأمريكيين . ومنذ ذلك الحين انضموا إلى القوات البريطانية بل كانوا فى بعض الأحيان وحدات نظامية تحت قيادة ضباط هنود ، ولكن فى معظم الأحيان كانوا عصابات حرب تحارب حسب قواعدها الخاصة . ولكن عندما خسر البريطانيون خسروا هم أيضاً . ولم تتم استشارتهم فى إقرار السلام - إذ لم يرد ذكر للشئون الهندية فى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢ م بين بريطانيا والولايات المتحدة - ولكن الحكومة الأمريكية مضت فى معاملتهم بوصفهم عدواً مهزوماً يمكن احتلال أرضه .

وفى استجابتها تجاه الغارات غير المرخصة ، رسمت الإدارة الاستعمارية البريطانية ما يسمى «خط الإعلان» على الخريطة سنة ١٧٦٣ م كجزء من الاستيلاء على كندا الفرنسية ، لتحريم مصادرة الأراضى الهندية وخصصت كل المنطقة الواقعة غرب «الأبالاش - Appalachians» إلى الهنود الحمر . ويصف روبرت هارفى «الاستياء الحارق» ضد «خط الإعلان» بأنه «أحد الدوافع الرئيسية ، رغم عدم ذكره ، وراء تمرد المستعمرين فى الحرب» ويستمر فى القول :

«ما أن اندلعت الحرب بين البريطانيين والأمريكيين ، من الشمال إلى الجنوب على امتداد الحدود الغربية ، لم يكن ثمة حاجز يمنع المجازر المنتظمة التى ارتكبت

فى حق القبائل الهندية عبر خط الإعلان - والتي تم الجزء الأكبر منها على أيدي الميليشيات التى تكونت من بين المستوطنين البيض الطامعين فى الأرض بمناطق الحدود بمؤازرة كاملة من واشنطن والقيادة الأمريكية العليا. وقد نجحت هذه المجازر بشكل مخرب، كما فتحت الطريق أمام الاحتلال الكامل للأراضى الهندية خلال القرن التالى. وتم ذبح الآلاف من الهنود فى العملية، كما حرق مئآت من قراهم وسويت بالأرض، كما خربت مساحات شاسعة من الأرض، وتم تدمير آلاف الأطنان من المحاصيل، وربما كان من المتعمد تجويع عشرات الآلاف من الهنود حتى الموت جوعاً نتيجة لهذا».

بل إن الحصبة كانت قاتلاً أشد سوءاً. وقد لاحظ البيوريتان فى ماساشوستس كيف كان الهنود عرضة لهذا المرض المهلك، ويصف أحدهم التناقص السريع فى السكان بسبب هذا المرض حيث إن «الترتيب المدهش للرب يسوع المسيح، برعايته لمواطن شعبه فى العالم الغربى» (والمقصود بشعبه هنا البيوريتان). وكان البريطانيون قد حاولوا نشر الحصبة بين الهنود المتحالفين مع الفرنسيين الذين كانوا يحاصرون بتيسبرج فى سنة ١٧٦٣م، بإعطائهم بطانيات تحمل عدوى الحصبة، وليس من المؤكد أنهم نجحوا، وكانت الحصبة منتشرة بالفعل. وغالباً ما كان يُشار إلى الحصبة على أنها المساعدة التى تقدمها العناية الإلهية لاستيطان البيض فى الأراضى الهندية، وتوحى الأدلة أن إعطاء البطانيات التى تحمل العدوى للهنود قد صارت جزءاً من الفولكلور فى أمريكا، سواء للناس البيض أو الهنود الحمر، سواء كان ذلك حقيقياً أم لا. كما أن التأخر من جانب الحكومة الأمريكية فى محاربة المرض بين الهنود فى القرن التاسع عشر، بعد أن صار التطعيم ضد المرض ممكناً، يوحى بعدم الرغبة فى الوقوف فى طريق «غرض الرب» فى هذا الشأن. فهل كان ممكناً إنقاذ الهنود الحمر لو أن السلطات الأمريكية كانت قد رأت أن من صالحها أن تفعل هذا؟ هذا أمر محتمل تماماً؛ إذ إن واشنطن باتخاذ الإجراء الطبى

البدائي المعروف باسم «التطعيم» إنما قام بخطوات للقضاء على مرض الحصبة في جيشه الذي كان يحارب البريطانيين، وهو ما ساعده على النصر دونما شك.

أما الهنود الذين سُرت أراضهم فلم يعودوا بدواً. إذ كانت معظم الأراضي تحت الزراعة، كما أن مستوى معيشة الناس كان متقدماً. ومن ثم كانت ذات قيمة أكبر عن ذي قبل؛ وفي ظل الموقف المالي الحرج في الأيام الأولى للولايات المتحدة كان بيع الأراضي الهندية للمستوطنين وسيلة جيدة لرفع الدخل (ولم تكن أثمان هذه الأرض تذهب إلى الهنود الأحمر بأي حال وإنما إلى الحكومة الجديدة). وعلى الرغم من أن البريطانيين لم يشتهروا بحبهم للهنود الأحمر، فإنهم كانوا قد منحوهم وضعاً قانونياً واعترفوا بحقوقهم في الأرض. أي الملكية بوضع اليد. ولم تكن الحكومة الأمريكية الجديدة راغبة في أن تنحو هذا النحو، وتذرعت بحجة أن الهنود الأحمر كانوا آنذاك عدواً مهزوماً فقد حقوقه.

ويصف هورسمان الموقف على هذا النحو:

«ومع هذا، فإنه على الرغم من أن الشطر الشرقي من وادي الميسيسيبي كان في غالبه خالياً من المستوطنين الأمريكيين، فإنه لم يكن مجرد براري مهجورة فقد يكتب تاريخه في بعض الأحيان كما لو كان المستوطنون يصبون في واد شاسع خال، على حين أن الحقيقة هي أن الشطر الشرقي من وادي الميسيسيبي كانت تشغله قبائل الهنود الأحمر. وكانت كثير من هذه القبائل قد حاربت بنجاح إلى جانب البريطانيين في الثورة: أما القبائل الأخرى على ضفاف الميسيسيبي فلم تكن قد سمعت بأن ثورة قد حدثت. وقليل منها استوعبت كيف أن توقيع معاهدة باريس بين الإنجليز والأمريكيين يمكن أن يؤدي إلى نقل قراهم وأراضي الصيد الخاصة بهم إلى الولايات المتحدة الجديدة».

ومن المذهل كيف أن المركزية الأوروبية كانت تشكل موقف كل من البريطانيين والأمريكيين فيما يتعلق بحقوق الهنود الأحمر. إذ لم يكن البريطانيون يمتلكون الأرض التي سُلّمت إلى الأمريكيين بمقتضى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢م،

ولكن الملاك الحقيقيين، أى الهنود الحمر، كانوا غائبين عن العقل الأوروبي. ومفتاح هذه العقلية هو افتراض أن البريطانيين (وبالتالى خلفاءهم الأمريكين) لهم حق منحه الرب فى ملكية الأرض، وبالمقارنة مع هذا الحق الإلهى كان الهنود الحمر مجرد محتلين لأرض غيرهم (إذ إن ملكية وضع اليد لم يُعَد بها)، وكان من الممكن طردهم منها أو قتلهم. وعادة ما كانت العملية تبدأ، مثلما حدث فى ماساشوستس قبل قرن من الزمان، بالمجهودات المبذولة لطردهم وهو ما كان يجابه بالمقاومة؛ وإذ حملوا السلاح ضد البيض، فقد أعلنوا أنهم أعداء؛ ومن ثم يمكن محاربتهم وهزيمتهم^(*).

وكان «واشنطن» نفسه يحبذ منح الأرض لأولئك الذين قاتلوا إلى جانب الثورة. ولكنهم رجالاً مقاتلين كان بوسعهم حماية المستوطنين البيض الآخرين فى أقاليم الحدود «ومن المرجح أنهم حالوا دون قتل الكثير من العائلات البريئة التى غالباً ما كانت، فى حالتهم المعتادة لتوسيع مستوطناتنا وتعدياتهم على أراضى الصيد الخاصة بالأهالى من الهنود الحمر، يسقطون ضحايا منحوسين للبربرية الوحشية». ولم ترد هنا أية فكرة عن حق الهنود فى حماية أراضى الصيد التى تخصصهم بالقوة، على الرغم من أن المستوطنين كانوا يستخدمون أساليب كان واشنطن نفسه يعترف أنها استفزازية.

والمدهش فى السياسة الأمريكية تجاه الهنود الحمر، سواء عند بداية الجمهورية الجديدة أو فيما بعد، هو التظاهر المتكرر والذى لم يتم التخلي عنه مطلقاً بأن حياة الأرض الهندية كان يتم حسب القواعد المتحضرة بشكل ما. إذ كان هناك كلام لا ينتهى عن المعاهدات والاتفاقيات، والحدود والضمانات، وبعد كل معاهدة كان الأمريكيون يظهرون كما لو أنهم سوف يلتزمون بها حقاً فى هذه المرة. ودائماً ما كان يظهر سبب ما، وعادة ما كان يحدث بسرعة؛ بسبب أن ما تنازل عنه الهنود لم

(*) تشبه البريطانيون والأمريكيون بنى إسرائيل وأرضهم الموعودة، فأى رد فعل نتوقه من البريطانيين والأمريكين إزاء ما يفعله الأصل (بنو إسرائيل، وإسرائيل الآن) فى الأرض الموعودة (فلسطين الآن)؟ - المترجم.

يكن كافياً أن يتم تنازل جديد(*) . وحسبما يلاحظ هورسمان :

«كانت الاتفاقيات مع القبائل الهندية تُعقد أو تُنقض ؛ لأنه في عيون العالم المتحضر كانت للولايات المتحدة بالفعل السيادة على الأراضي غرب الميسيسيبي . والأسئلة الوحيدة كانت تتعلق بكيف ومتى وتحت أى شروط كان يمكن تجريد الهنود الحمر فعلاً من أملاكهم . وبالنسبة للمفاوضين البيض كانت لغة المعاهدة مجرد وسيلة للحصول على الأرض بأقل قدر من الصراع والتكاليف ، كما كانت وسيلة لتشبيط المقاومة الهندية حتى تصبح التنازلات القادمة الحتمية ضرورة . أما بالنسبة للمفاوضين من الهنود الحمر ، فكانت لغة المعاهدة غالباً ما تمثل وعوداً جادة كانوا يصدقون أنها سوف تدخل حيز التنفيذ»(*) .

والحقيقة أن تقدم الاستيطان الأمريكى فى الأراضي الهندية كان يمكن أن يمضى بطريقة مختلفة قليلاً لو أن السياسة المعلنة كانت هى النهب الفاضح الغاشم ، دونما اعتبار للملطفات القانونية . وبعبارة أخرى ، فإن كل هذه المعاهدات والاتفاقيات لم تجلب سوى قدر قليل من الفائدة للهنود . فبدلاً من ذلك فإنهم اكتفوا بإقناع من يقومون بالتعديات بأنهم كانوا يتصرفون بشرف ؛ وهو ما كان يشجعهم على القيام بالمزيد من التعدى ، بل ويشغف أكثر .

كان هذا جزءاً من الاقتناع بأنه بمعنى ما كان يتم إسداء الجميل إلى الهنود الجمر ؛ لأنهم كانوا يتعرضون إلى مميزات الحضارة الأمريكية . وكان توماس چيفرسون على وجه الخصوص يريد سياسة تجاه الهنود لا «تنتهك مفهومه الخاص عن رسالة الولايات المتحدة فى أن تظهر لأوروبا أن أمة يمكن أن تعيش بلا حرب ويمكن أن تجلب السعادة إلى شعبها»(*) : وعلى حد تعبير هورسمان :

«وكون أنه رأى التوسع الأمريكى فى مصطلحات نشر الحضارة ، وجلب أسلوب حياة جديد أفضل ، أمراً لا يثير الدهشة . . . ومفهوم «المصير الواضح»(*) فى التوسع الأخلاقى ، واضح تماماً فى سياسة چيفرسون تجاه

(*) أليس ذلك هو طبق الأصل مما يحدث مع الفلسطينيين الآن؟ - المترجم .

(**) أو المصير المحتوم ، أو حمل الرجل الأبيض ، كلها مصطلحات تبرر ونحت على التوسع على حساب الغير بدعوى مسئولية إلهية لنشر الحضارة الأنجلوساكسونية ، وهى الحضارة المسيحية أو اليهودية - المترجم .

الهنود. وبالنسبة لـجيفرسون كان التوسع مرغوباً ليس فقط بالنسبة للأمريكيين، ولكن أيضاً بالنسبة لأولئك الذين كان من الممكن أن يبتلعهم التوسع. هذه الثقة غالباً ما كانت تعمى جيفرسون عن الحقائق اليومية في العلاقات مع الهنود».

وتلخيص هورسمان للسياسة الأمريكية تجاه الهنود هو أنها بدأت بمبادئ سامية برهنت على الصعوبة المتزايدة في تطبيقها، وأن قبول فكرة أن الهنود لهم حقوق لم تكن متماشية مع الجوع إلى الأرض الذي كانت سياسة الحكومة تحفزه. وكسب الجوع إلى الأرض المعركة، بيد أن المبادئ السامية عوملت على نحو ما كما لو أن الهنود قد لقوا معاملة عادلة. ولم يكن على أمريكا فقط أن تظهر في الخارج على أنها مخلصه لحركة التنوير؛ وإنما كان ينبغي عليها أن تكون هي نفسها قادرة على تصديق هذا، وكان هذا يتطلب إعادة ترتيب الحقائق.

وهكذا فإن تاريخ قارة أمريكا الشمالية كان لا بد من إعادة تلفيقه؛ لكي يتم تحاشي تذكير الناس بقرن أو أكثر من القسوة والعقيدة الفاسدة التي كانت في الحقيقة مطلوبة في بناء البلد الجديد، وبدلاً من ذلك حل محله براري خاوية كانت في انتظار من يملؤها ويمدينها من أولئك الذين جلبوا الحضارة المسيحية. وقد تعاملت ثقافة الحدود الأمريكية مع الهندي باعتباره نوعاً شرساً - بشكل خاص - من الخطر الطبيعي الذي يقف في طريق التقدم، يقف في مكان ما بين الدب والحية الرقطاء ذات الأجراس، أو بين القحط والعواطف الرعدية، وليس باعتباره كائناً بشرياً كان حقه في الحياة والحرية والسعي صوب السعادة من الأمور البديهية. ومع هذا فقد كانت هذه بالضبط هي معايير الحضارة التي كان الأمريكيون يحاولون نشرها. وأفضل تفسير لهذا التناقض ليس هو النفاق، على الرغم من أنه كان موجوداً بالتأكيد، ولا العنصرية بالمعنى الحديث، على الرغم من أن الثقة في التفوق المتوارث في الجنس الأبيض كانت شائعة على المستوى العالمي بشكل أو بآخر، ولا حتى النزعة الشريرة المجردة؛ لأن ذلك كان زمناً يأخذ الاستقامة على محمل الجد تماماً، زمناً من الشغف الإنجيلي الكثيف والتدين القائم على الكتاب المقدس؛ إذ كان الناس يرغبون في أن يسلكوا سلوكاً حسناً.

وأفضل تفسير - ببساطة - هو أن معايير الحضارة التي كانت أمريكا ترغب في أن تتميز بها كانت تنطبق فقط على أولئك الذين تضمهم العائلة الأمريكية، أى أولئك الذين كانوا بالفعل من أبناء الشعب المختار. ولم يكن أولئك الذين بالخارج يستظلون بغطائها. وثمة تشابه دقيق هنا مع سلوك ذلك الشعب المختار السابق، أى الإسرائيليين القدماء، الذين كانت الوصايا العشر لديهم بالفعل قفزة أمامية أخلاقية أبعد مما أحرزته ثقافات أخرى في ذلك العصر^(*)، بيد أنهم كانوا يرون أن الوصايا العشر لا تنطبق سوى عليهم. كان الكنعانيون والهنود خارج العهد، أى أنهم ليسوا من المستفيدين. وكان يمكن أخذ أراضيهم، ويمكن قتلهم إذا قاوموا. ولأنهم ليسوا من ضمن الشعب المختار، حينما ينظر إليه من خلال العدسات الأخلاقية للإسرائيليين القدماء، أو الإنجيليين الأمريكيين المتدينين، فقد صاروا غير مرئيين بشكل أو بآخر.

ويتعامل «سيمون شاما» مع التبجيل الأمريكي للبراري الخالية في كتابه: «Landscape and Memory». وقد تلخص في اكتشاف سنة ١٨٥٢م - ورد في الفعل الوطني الخارق للعادة إزاءه - لمنطقة كبيرة من الغابات فيما صار يعرف باسم «يوسيمات ثالى» عند سفوح تلال سيرانيفادا في وسط كاليفورنيا. ويبدو أن اسم يوسيمات جاء من تعبير هندي عن الجنس الأبيض معناه «بعض الناس سفاحون». وفي الخيال الوطني، كان لا بد أن تكون خالية، لم تفسدها يد الإنسان. وكانت تحتوى على مساحات من الأشجار الباسقة، وهى بعض أكبر الأشياء الحية التى تم اكتشافها على الإطلاق فى أى مكان على سطح كوكب الأرض، وهى ما تم تصنيفها فيما بعد تحت اسم «Sequoia Gigantea». وبسبب كبر عمرها - بعضها عمره آلاف السنين - فإنها سدت فجوة فى الخيال الأمريكى وخلقت توازنًا مع الولع الوطنى بالحدائق. وقد زعم بعض الشعراء، فعلاً، أن هذه

(*) هذا كلام غير دقيق بالمرّة؛ لأن الناظر فى التراث المصرى القديم، أو فى التراث الذى عرفته بلاد الرافدين، أو حتى الحضارات القديمة فى الهند والصين وفارس يجد أن لكل منها نظاماً أخلاقياً متقدماً. بل إن هذه الحضارات لم تقصر هذا الإطار الأخلاقى فى نطاقها؛ بسبب النزعة العنصرية كما زعم اليهود - المترجم.

الأشجار كانت هي «الأمريكيين الأصليين» حقًا، وبذلك يتزعون عن الهنود هذا اللقب المحرج بطريقة مريحة وملائمة. فقد كانت، حسبما لاحظ أحد المراقبين الذين أذهلتهم الأشجار، «الشجرة العبرية فهي قديمة قدم العهد القديم». ووصل الخيال إلى أن الرب قد زرع هذه الأشجار منذ زمن طويل توقعًا لوصول الجنس الأبيض الذي سوف يقدرها حق قدرها.

والحقيقة أن الوادى لم يكن خاليًا من السكان الأصليين إطلاقًا؛ لأنه كان وطن شعب الأهواهنيشى منذ زمن لا تعيه الذاكرة. وأرض المروج التى تسود الوادى، والتى حيرت الزائرين البيض بنباتها الوفير، كانت فى الواقع تبدو على ما هى عليه؛ لأن هذا كان غابات تحت التحكم، أى أنها كانت أرضًا يتم تطهيرها بالحرق من أجل الزراعة. ولكن الزوار كانوا يريدون لها أن تكون «طبيعة»، وليست نتاجًا لمهارة الهنود الذين يحتقرونهم. وبسرعة تمت مطاردة الهنود خارج وادى يوسيمات الذى أعلن حديقة للولاية (ثم متزهاً وطنياً فيما بعد).

والإحساس بأن يوسيمات والأشجار الكبيرة كانت تشكل تجلياً فائق القوة لتفرد الجمهورية الأمريكية هو فقط الذى يمكن أن يفسر السبب فى أن إبراهيم لينكولن، فى غمرة الحرب الأهلية، وهو يوقع مرسومًا فى أول يوليو ١٨٦٤م، يمنحها لولاية كاليفورنيا «لصالح الشعب، لتكون متجعاً وترفيهاً لهم، ولكى يحافظوا عليها دونما تغيير على مر الزمان.

لقد كانت هالة التاريخ المقدس، الشعور بأن غابة الأشجار الكبيرة كانت نوعاً من الآثار الأمريكية، نوعاً من مجمع الآلهة النباتى الذى حرك لينكولن والكونجرس؛ لكى يتصرفوا على النحو الذى تصرفوا به... لقد بدا أن الأشجار العملاقة تبرهن على صحة البصيرة الوطنية الأمريكية بأن الضخامة المذهلة تخاطب الروح. وكانت حقيقة أن الأعمدة الحمراء لهذا المعبد الأمريكى السامى الرفيع لم تشيده يد الإنسان، هى بالضبط السبب فى أنها (الأشجار العملاقة) بدت وكأنها من صنع العناية الإلهية، وأخذت تنمو بشكل قدرى بل وبشكل رهيب حتى يكتشفها شعب الله المختار الجديد فى قلب الأرض الموعودة».

وبعبارة أخرى، فإن ما كان الأمريكيون يبحثون عنه هو طريقة ما لتوضيح أن الأرض التي سكنوها لم تكن مجرد أرض جميلة وإنما كانت «مقدسة» بالفعل.

وعلى أية حال، فإن الأمريكيين أحسوا في الغابة البرية أنهم يمكن أن يكونوا على صلة بأرواحهم وأن يرتبطوا بربهم. وغالبًا ما كان الجيل الأول من الفنانين الأمريكيين الأصليين يرسمون مناظر ريفية، ولا سيما أراضي الغابات، كمعابد أو كاتدرائيات طبيعية. صامته ساكنة، خاشعة، متسامية وصوفية. وتحدث القصائد الشعرية التي ألهمتها مثل هذه العواطف عن التواضع الشامل، وعدم الجدارة تقريبًا، حينما يتأمل الشعراء كيف أن الرب فعل الكثير من أجلهم بوصفهم أمريكيين، وليس أقلها أنه أعطاهم مثل هذه البلاد الخاوية المدهشة لكي يسكنوها. وقد عبر والت هويتمان عن هذا الحلم الأمريكي حينما كتب في قصيدة «أغنية لنفسى»:

وحدى فى البرية والجبال أصطاد

وأتجول مندهشاً بخفتى وانشراحي

فى أواخر النهار لأختار بقعة أمضى الليل فيها

أضرم ناراً وأشوى الفريسة المقتولة لتوها

وأروح فى النوم فوق كومة من أوراق الشجر وكلبى وبندقيتى إلى جوارى

كان جوهر مثل هذا الشعور، أن الرب أعطاهم لهم، وأنهم لم يضطروا إلى

سرقتها من غيرهم؛ إذ إن المصير المحدد سلفاً (المصير المحتوم لنشر الحضارة)

لا يتكلف الضمير!

(٩)

المختارون يواجهون المحدثين

فى الروح التى ذهبت بها أمريكا إلى الحرب سنة ١٩٤١م، يمكن أن نتعرف على بعض الحماسة البريئة والتزينة التى تم بها إرسال الجيش البريطانى إلى الحرب فى سنة ١٩١٤م. وفى كل من الحالين كان الصراع الناشب وراء شواطئ الوطن ولم يكن يبدو أنه يهدد الوجود الوطنى، فى المستقبل المنظور على الأقل. وعلى خلاف بريطانيا لم تكن الولايات المتحدة قد واجهت الصيف الحاسم بالنسبة لها على جبهة السوم سنة ١٩١٦م، وما نتج عنه من صدمة الإفاقة من أحلام المجد العسكرى والمصير الوطنى. إذ كانت بريطانيا سنة ١٩١٤م ما تزال قوة عظمى، وربما كانت ما تزال هى الأعظم - صناعية، غنية، متحضرة وراضية عن نفسها (على الأقل بعيدة عما كان يسمى عمومًا «الطبقات الأدنى»). وكانت الاستجابة الوطنية لاستغاثة حليفة بريطانيا «بلجيكا الصغيرة المسكينة» التى غزتها ألمانيا عند بداية الحرب، هى استجابة صديق قوى تجاه جار أضعف يجابه المتاعب.

فى ديسمبر سنة ١٩٤١م تعرضت أمريكا لهجوم فظ؛ وكان هناك غضب، وليس نخوة، وراء إعلانها الحرب. على الرغم من أنه كان هناك أيضًا إحساس بالراحة؛ لأن الوقت قد حان لمساعدة صديق فى وقت الحاجة، هو بريطانيا العظمى. ولكن الشقة بالنفس الوطنية الأمريكية لم تتقلص، حيث إنه فى ذلك الوقت، كانت بريطانيا قد توارت فى الظل إلى الأبد بفعل المعازر اللامعقولة على

الجبهة الغربية قبل جيل مضى . وكان حول انجلترا سنة ١٩٤٠م إحساس من بقايا إيمان بالكتاب المقدس ، وقد تعلقت بشكل قلق بـ «الديانة الحقّة» ، حينما كانت أوروبا على بعد واحد وعشرين ميلاً من مقاطعة كنت ، تحت وطأة الحذاء العسكرى النازى . ومثل هذا الإحساس بالانكشاف أمام الخطر لم يكن مستشعراً فى أمريكا قبل أو منذ ذلك الحين ، بل ولم يكن حتى نتيجة للإرهاب المحلى أو العالمى .

وتماماً مثلما كان بوسع الفيلد مارشال دوجلاس هيج أن يأمر قواته بالهجوم ومعاودة الهجوم، وهو متأكد من أن الرب بجانبه وأن النصر النهائى سيكون حليفه مهما كان الثمن؛ فإن القادة الأمريكيين كذلك وقادة الأساطيل البحرية ذهبوا لقتال اليابانيين بنفس العقيدة. وثمة شيء واحد نخبرنا به قصة الشعب المختار هو أن المؤرخين العسكريين لم يهتموا بالقدر الكافى بصلوات القادة العسكريين الذين كتبوا عنهم وعن قواتهم؛ إذ إن تلك الصلوات، والإطار الأيدىولوجى والدينى الذى تُليت تلك الصلوات فى رحابه، كانا لا بد أن يكشفوا عن الكثير من الدوافع والمبادئ الأخلاقية العسكرية.

وموضوع كيفين فيليبس فى كتابه «The Cousins Wars» مؤداه أن ثلاثة صراعات هى التى غيّرت اتجاه الحضارة الغربية : الحرب الأهلية الإنجليزية (أو الحروب كما يقول بعض المؤرخين) ، وحرب الاستقلال الأمريكية (أو الحروب الثورية) ، والحرب الأهلية الأمريكية ، وكانت مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً؛ إذ كانت كل منها تمثل صداماً بين مثاليين أو مبدأين دينيين وجدا بين الشعوب الأنجلوسكسونية فى بريطانيا وأمريكا . ومن الممكن أن نحدد فى كل حالة الجانب الرابع بأنه الجانب الأكثر حماسة دينياً، أى الجانب الذى كان أشد اقتناعاً بأن الرب معه ، الهوتستانت الأكثر راديكالية (الأكثر كالفينية فى الواقع) من الجانبين . وكانت جيوش كرومويل معروفة جيداً بأنها تسير إلى المعركة وهى تنشد المزامير والأناشيد الدينية؛ وكذلك فعلت قوات ماساشوستس التى حاربت البريطانيين . وليست هناك صورة لجورج واشنطن أكثر شهرة أو أشد كشفاً من

صورته وهو يصلى أثناء محنة الشقاء التى مر بها جيشه فى وادى فورج . وتبدأ رواية «ذهب مع الريح» بفطنة بتحليل الحرب بين الولايات الشمالية والجنوبية فى أمريكا، باعتبارها إعادة افتتاح النزاع المسلح بين كرومويل وشارل الأول، الهيريتان فى مواجهة الأسقيين، الرجل العادى ضد الطبقة الراقية، والشمالين ضد المتمردين الجنوبيين .

وفى أمريكا ما تزال هذه الروح حية، «وترنيمة المعركة من أجل الجمهورية» التى كتبتها جوليا وارد هاو، الداعية إلى تحرير العبيد سنة ١٨٦٢م وأنشدتها على النغمة التى سمعت بها القوات تنشد «جسد جون براون»، صارت هى أنشودة قوات الاتحاد الظافرة فى الحرب . ولكنها كانت ما تزال تُنشد بإحساس على أفواه القوات الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية . وليس هناك تقرير يشير إلى أنها كانت تستحوذ على خيال الجيش الأمريكى فى حرب فيتنام؛ وهو ما قد يلقى الضوء على نتيجة الحرب الكارثية، ولكنها عادت بقوة إلى مكان الصدارة منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١م . وهى إقرار واضح بأن الرب يقف إلى جانب أمريكا بشكل فريد؛ لأن أمريكا بجانب الحق بشكل فريد . وفى ضوء نصيحتنا للمؤرخين العسكريين، فإن هذا يستحق أن يؤخذ فى الاعتبار تمامًا .

لقد أبصرت عيناى مجد قدوم الرب

إنه يدوس محصول الكروم حيث يخزن عنب الحق والغضب

لقد أطلق البرق المميت لسيفه السريع

وحقيقته ماضية فى طريقها

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

حقيقته ماضية فى طريقها

لقد رأيته فى نيران المراقبة فى مائة معسكر مستديرة
لقد بنوا له مذبحاً فى ندى الماء ورطوبته
أستطيع أن أقرأ جملته الصحيحة على ضوء المصابيح المعتمدة والمتوهجة
إن يومه ماض فى طريقه
المجد . . . إلخ

لقد قرأت نصاً نارياً مقدساً فى الإنجيل فى صفوف مصقولة من الصلب
كما تتعامل مع الذين يحقروننى ، كذلك سوف تتعامل معك رحمتى
دع البطل ، الذى ولدته امرأة يسحق الحية بكعبه
طالما أن الرب يسير إلى الأمام
المجد . . . إلخ

لقد دق الطبول للمسير أماماً ولن يدعو أبداً إلى التراجع
إنه ينقى قلوب الرجال أمام كرسى عدالته
أوه ، فلتكونى سريعة يا روحى فى الإجابة عليه ! ولتكونى فرحة يا أقدامى
فإن ربنا يسير فى طريقه
المجد . . . إلخ

فى جمال الزنابق وكلد المسيح عبر البحر
ومعه مجد فى البرعم يتجسد فىك وفى
ومثلما مات ليجعل الناس مُقدسِينَ ، فلنمت نحن لنجعل الناس أحراراً
بينما يسير الرب فى طريقه
المجد . . . إلخ

ومن الواضح أن هذه أنشودة معركة لأمة مختارة ، شعب مختار . إنها الطرف
التقيض للشعور الوطنى من الموقف الوطنى الساخر ، بل المستهزئ بالأنشودة التى

كان يرددها الجيش البريطاني بعد سنة ١٩١٦م، والتي تقول كلماتها: «رأيتهم معلقين فوق الأسلاك الشائكة القديمة...»، أو الأنشودة المعاصرة لها، وهي أغنية بريئة لكنها ساخرة بنفس القدر، تقول: «نحن هنا، لأننا هنا، لأننا هنا، لأننا هنا». والتناقض بين الحالتين علامة فارقة في الشخصية الوطنية ما تزال تنطبق على العصر الحديث، وتشرح ردود الفعل المختلفة تمامًا لأمتين تتشابهان بشكل واضح. فما تزال الاثنتان، في جوهرهما، أنجلوسكسونيتين وپروتستانتيتين.

والفرق ليس ببساطة هو أن لدى البريطانيين ملكة السخرية وليس لدى الأمريكيين مثلها. كما أن الفرق ليس ببساطة هو أن الأمريكيين ما يزالون يؤمنون بأنهم «مختارون» ولم يعد البريطانيون كذلك. فمن المحتمل، ربما، أن يكون الإنجليز قد بدأوا يؤمنون «باختيار» الأمريكيين، على الرغم من أنهم لم يكونوا ليعترفوا بهذا. ومن المؤكد أن عبارة «عبء الرجل الأبيض» التي استخدمت في انجلترا بطريقة ساخرة (طبعًا) تُعتبر الآن صالحة للتطبيق على الولايات المتحدة؛ إذ إن عبارة «السلام الأمريكي - Pax Americana» - والتي تعني ترحيب الأمريكيين بالقيام بدور شرطي العالم - صارت كليشيهًا شائعًا في أعمدة كتاب الصحف البريطانية، وبها مغزى متضمن في اتجاه العبارة القديمة التي تجاوزها الزمن «السلام البريطاني - Pax Britanica» (والتي نبعت بدورها أصلًا من «السلام الروماني - Pax Romana» - أي السلام الذي تفرضه الفرق العسكرية الرومانية - في العصور الكلاسيكية).

إن «ترنيمة الحرب من أجل الجمهورية»، التي تبدو بالنسبة للإنجليز مغالاة في التعصب والدعوة إلى الحرب، تنتمي في الحقيقة لنفس التراث الديني مثل الخاتمة التي كتبها «هاريت بيشر ستو» لرواية «كوخ العم توم» التي ناقشناها بالفعل. فقد أعلنت أن أمريكا تحت المحاكمة ما لم تصحح خطأ العبودية؛ أما «هاو» فإنها تبين أن الخطأ قد تم إصلاحه حقًا. كما أنها تقدم أيضًا رابطة أو عبورًا إلى تراث شعب مختار آخر، وكذلك رابطة تربط القرن التاسع عشر بالقرن الواحد والعشرين، وهي تحديدًا الوعي الأسود الأمريكي بالذات في مصطلحات الكتاب المقدس،

باعتبارهم شعباً «فى أغلال العبودية» وينتظر الخلاص . والتنميط فى ترنيمة هاو لا يضع موسى باعتباره محرراً (على الرغم من أنه فى التنميط المسيحى الكلاسيكى كان موسى نمطاً يسبق المسيح فى التجسد) . وهذا أمر غير عادى ؛ لأن التنميط كاثوليكي أكثر منه پروتستانى . وفى البيت الذى يقول : «فى جمال الزنابق وكُد المسيح عبر البحر» ثمة إيماءة إلى الرمزية التى عرفها عصر النهضة : فالزنبقة ، زهرة النقاء والطهارة ، كانت علامة تقليدية على مريم العذراء .

والقوة الدافعة فى «أنشودة المعركة» تدور حول «الموت لجعل الناس أحراراً» وهى إشارة واضحة إلى المسيح . إنها ليست عن أولئك الذين حرموا من حريتهم ، بحيث ينتزعونها لأنفسهم . ومن المؤكد أنه كانت هناك انتفاضات سوداء فى الحرب الأهلية ، وبنهايتها كان هناك ذيل طويل من اللاجئىن السود قد ربط نفسه بمؤخرة جيش الاتحاد المتصر فى الجنوب . بيد أن تحرير العبيد السود كان فى جوهره عملاً من أعمال الجنس الأبيض ، الذين تصرفوا على اعتبار أنهم «أمة منقذة» . وفى مكان المسيح بالتالى . ولكن ذلك التنميط الآخر الأكثر پروتستانتية ، والذى يصور السود مثل العبرانيين فى أغلال العبودية ينتظرون موسى الخاص بهم ، لم يكن بعيداً عن السطح .

ويصف دو بوا ، الذى ولد فى غضون خمس سنوات من نهاية الرقيق ، كيف أنه وهو شاب مر بخدمة كنسية فى كنيسة زنجية فى عمق الجنوب - وليس فى مسقط رأسه (لأنه كان أصلاً من ماساشوستس) :

«كان شكل الواعظ الأسود الضخم يهتز ويرتعش بينما تتزاحم الكلمات على شفثيه وتتطاير صوبنا فى فصاحة مفردة . وكان الناس يتأوهون ويضطرون ، ثم قفزت المرأة ذات الخدين البارزين والبشرة البنية بجوارى فى الهواء مباشرة وصرخت صرخة مدوية مثل روح ضائعة ، على حين عم المكان عويل وأنين وصراخ ومشهد من الوجد الإنسانى لم أر له مثيلاً من قبل . وأولئك الذين لم يشهدوا تهيج الإحياء الزنجى فى غابات الجنوب البكر لا يمكنهم سوى أن يدركوا الشعور الدينى للعبد بصورة غامضة ، وتبدو مثل هذه المشاهد شاذة ومضحكة ، ولكنها مريعة كما رأيتموها» .

وقد نمت مسيحية العبيد السود من ديانة أفريقية وثنية ، بأناشيدها وأصحياتها وكهنتها الرجال والنساء الساحرات . والإحساس العاطفى الزائد بحضور أرواح غير مرئية لكنها قوية ، قد انتقل إلى سياق مسيحي بدائى بفضل اليقظة الكبرى التى وجهها المبشرون الإنجيليون فى القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر (مع الربط بين القوى الخفية والروح القدس الذى يسوق المتعبد إلى حالة هياج من الفرح الخارق للطبيعة) . وقد أنتج الإحياء الزنجى المبشّر الزنجى وهو أكثر شخصية متفردة طورها الزوج على الأرض الأمريكية حسبما كتب دو بوا . فقد كان زعيمًا وسياسيًا ، وخطيبًا ، ورئيسًا جذابًا ، ومثاليًا . أما الزعماء السود العلمانيون ، الذين كان دو بوا نفسه نمطًا منهم ، فلم يكونوا مرتاحين دائمًا إلى هذا التراث الذى يجعل من القسيس زعيمًا . كما كانت لا تزال الحال فى خمسينيات القرن العشرين ، عند بداية حركة الحقوق المدنية ، حيث كان هناك بعض المنافسة على التفوق بين القساوسة السود مثل مارتن لوثر كنج والسياسيين العلمانيين المرتبطين برابطة NAACP الخاصة بـ «دو بوا» نفسه .

ويسجل دو بوا كيف اعتاد الزوج أن يغنوا :

أيها الأطفال ، سنكون أحرارًا

عندما يظهر الرب !

يبد أنه كان مخطئًا فى استبعاد هذا باعتباره مجرد نزعة ألفية . تأجيل الخلاص إلى نهاية الزمن ، فى المصطلحات البشرية إلى الأبد . أما ما لم يتعرف عليه فهو قوة التنميط البروتستانتى فى تحول قصص الكتاب المقدس إلى حقيقة حاضرة ، وأن يجعل من المسيحية قوة للتحرير الحقيقى ، وليس الخضوع الدينى . وسيرة الأمة الهاربة هاريت توبمان التى تحمل عنوان : «Harriet The Moses Of Her People» التى كتبتها معاصرتها وصديقتها سارة برادفورد تصف كيف بدأت تربط حالتها فى العبودية بالرسالة التى سمعتها على لسان واعظ فى الكنيسة :

«كان فى عقلها بالفعل أن شعبها هم الإسرائيليون فى أرض مصر ، بينما كانت

بعيدة فى مكان ما بالشمال، أرض كنعان، بيد أنها لم تكن لديها بعد أية نبوءة بأنها ستكون بمثابة موسى الذى سيكون زعيمهم، عبر سحابات الظلام والحزن، والنيران والمحن؛ لتقودهم إلى تلك الأرض الموعودة؟ فهذا ما لم تقله أبداً.

وقررت أن تهرب، مع إخوتها؛ ولكن لأن التخاطب بين العبيد كان يعتبر مثيراً للشك من جانب المراقبين، فإنها كانت تتواصل معهم بالأغنية، وهى تعدّل قليلاً من الكلمات المعروفة جيداً لكى تقول ما تقصده. وبالنسبة للأذن غير المرتابة كانت هذه الكلمات ما تزال أحلاماً ألفية بريئة، الحرية النهائية «عندما يظهر الرب». ولذلك فإن هاريت تويمان، فى اللهجة التى نسبتها إليها برادفورد، كانت قادرة على أن تغنى بصوت عال، دونما خوف من التحقيق، رسالتها المشفرة - «لقد حان الوقت»:

عندما تأتى تلك العربة القديمة

سوف أترككم

إننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

أيها الأصدقاء، إننى سوف أرحل عنكم

إننى آسفة لترككم أيها الأصدقاء

الوداع، آه، الوداع

لكننى سوف أقابلكم فى الصباح

الوداع، آه، الوداع

إننى سوف ألقاكم فى الصباح

عندما تصلون إلى الأرض الموعودة

على الضفة الأخرى من الأردن

لأننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

وقد تذكروا الأغنية زمنًا طويلًا بعد رحيلها. فقد كانت صافية في تلك الليلة وسرعان ما وصلت إلى ملاذها الآمن، حيث لم يكن ممكناً أسرها من جديد وإعادتها. في البداية كان هذا يعنى نيويورك. والأردن الذي أشارت إليه أغنيته كان هو نهر أوهايو الذي يفصل كنتكى (ولاية العبيد) عن أوهايو أو إلينوى (الحرّة). وبمرور الوقت صارت هى المنظمة لواحدة من السكك الحديدية السرية (حسبما أطلقوا عليها) التى كانت تشجع العبيد على السعى نحو السلامة على امتداد ذلك الطريق. وتنسب إليها كاتبة سيرتها الفضل فى كثير من المهام الناجحة وقيادة مئات من العبيد الأفراد إلى طريق الحرية، فى ظل ظروف بالغة الخطر دائماً. ولو أنها وقعت فى الأسر لكانت قد قُتلت، شتقاً أو جلدًا بالسياط حسبما كان يُفترض. وبعد مرسوم ١٨٥٠م الخاص بـ «العبيد الهاريين - Fugitive Slave Act»، والذي سمح بعودة العبيد الهاريين حتى من الولايات الحرّة، لم يكن هناك أمان خارج كندا. وصار نهر «الأردن» الأسطوري الذي ينبغى عبوره إلى حيث الحرية هو نهر نياجرا الذي كان يفصل الولايات المتحدة عن الأراضي البريطانية. وتُعطى برادفورد وضعاً مؤثراً لرؤية توبمان للملكة فيكتوريا، التى تصورتها تقف كأم ملكية على الضفة الكندية من النهر؛ لكى ترحب بالعبيد الهاريين. وبالنسبة للعبيد فى الجنوب كانت كندا رمزاً أو مفهوماً بقدر ما كانت مكاناً، كانت الأرض الموعودة. وكان نهر الأردن هو حدود كنعان التى تحدث عنها الكتاب المقدس، الأرض التى وعد بها الرب الإسرائيليين بعد هروبهم من مصر تحت قيادة موسى والتهيه الذى استمر أربعين سنة فى قفار سيناء: «إلى أن أعبّر الأردن إلى الأرض التى أعطانا الرب إلهنا» (سفر التثنية: ٢: ٢٩).

وكانوا فى طريقهم إلى الشمال ينشدون الأغنية الروحية «اهبط يا موسى»، وهى الأغنية التى كانت ممنوعة فى الجنوب:

اهبط يا موسى

اهبط فى الطريق إلى أرض مصر

قل لفرعون العجوز

دع شعبي يذهبون

أوه قال فرعون إنه سيعترضهم

دع شعبي يذهبون

ولا تضع في البرية

دع شعبي يذهبون

قد تحتجزني هنا، ولكنك لا تستطيع أن تعوقني هناك

دع شعبي يذهبون

فهو يجلس في السماء يستجيب للصلاة

دع شعبي يذهبون

كانت فترة حياة دو بوا (١٨٦٨ - ١٩٦٣ م) تتطابق مع حياة كل من هاريت توبمان (١٨٢٠ - ١٩١٣ م) ومارتن لوثر كنج جونيور (١٩٢٩ - ١٩٦٨ م) وكان كنج ابناً لقسيس، ولا بد أنه قد انغمس منذ طفولته في هذا النوع من التنميط المرتبط بالخروج. كتبت كيث د. ميللر في كتابها «The Voice of Deliverance» :

«تعلم كنج ما يتعلق بديانة العبيد من أبيه، الذي كان مبشراً شعبياً، وتبنى رؤيتها للخلاص أساساً لأفكاره وخطبه... فعلى مدى عشرات طويلة من السنين كان العبيد يمارسون ديانتهم تحت ظروف غاية في الصعوبة؛ إذ كانت القوانين تمنعهم عادة من تعلم القراءة والكتابة، بحيث كان أغلبهم غير قادرين على قراءة الكتاب المقدس. وهكذا كانت المواعظ تخدم ليس باعتبارها وسيلة مهمة للتوجيه الديني فحسب، وإنما كانت بالنسبة لكثيرين من السود، الوسيلة الوحيدة للتوجيه باستثناء الموسيقى. وكان معظم المبشرين، مثل رفاقهم العبيد، يفتقرون إلى ما يعينهم سوى أن يستقوا الدين من المبشرين الآخرين - وليس من الكتاب المقدس أو غيره من النصوص».

وقد أدى هذا إلى نتيجة واضحة: فقد كان على كل واعظ أن يكون لديه مخزون

من العظات في ذاكرته يمكن أن يأخذ منه أو يعدله كلما دعت الضرورة؛ وغالبًا ما كانت هذه العظات مؤلفة من عظات سمعها هو نفسه من وعاظ آخرين؛ ولذلك كان مخزونه من العظات نوعًا من تراكم حكمة الشعب. وكان لا بد لهذا أن يضيف إلى سلطته، حتى بين أولئك الذي يعرفون المصادر التي استعار منها. ولم يكن من المعتاد أن تتم الإشارة إلى المراجع، كما لو كانت الموعظة مقالة أكاديمية مدعمة بالهوامش، بل إن هذه الاستعارة غير الموثقة لم تكن تعتبر سرقة أدبية غير عادلة. فقد كانت تعنى بصفة خاصة مجازًا أو صورة مؤثرة - أو اقتباسًا من الكتاب المقدس - يمكن إعادة استخدامها بحسب الحاجة. ويمكن للمرء أن يُشبه هذا بمنشور بابوي يمكن تطعيمه باقتباسات من منشورات أخرى لبابوات سابقين. والغرض هو إظهار استمرارية تراث التعاليم البابوية - تمامًا مثلما يفعل واعظ أسود، باستخدام وتعديل كلمات الوعاظ الذين سبقوه؛ لكي يوضح استمرارية تراث الوعظ الذي هو حارسه والمتحدث باسمه.

ويحوى القصد المزدوج لوداع هارييت توبمان لرفاقها العبيد في الأغنية التي اقتبسناها فيما سبق رسالة لاهوتية عميقة. فقد كانت ديانة العبيد تتجه إلى هذه الدنيا وإلى الحياة الآخرة أيضًا: فقد كانت تتعلق بالتححرر من الخطيئة والتحرر من الأسر الجسدي أيضًا (مثلما كانت ديانة العهد القديم في الواقع). والكلمات أو العبارات التي كان يمكن أن تنطبق على أي من المعنيين كانت شائعة، كما أن اللعب بالكلمات كان محل تقدير ومصدرًا للاستمتاع. وكان مالك العبيد المسيحي يجد من الصعب عليه أن يعترض على العبيد المسيحيين وهو يغنون عن موسى وهو يخلص العبرانيين من مصر، حتى لو كان يعرف أنهم يغنون عن الخروج عليه.

كانوا أيضًا يقدمون الأمل في هذه الحياة. وأحد التجليات الواضحة في ديانة العبيد الدنيوية كان هو التشبه الكثيف وواسع الانتشار بشخص العهد القديم. وكان العبيد يتعاطفون بعمق مع نضالات مريم ودانيال ونوح وحزقيال ويوشع ويونس وموسى - الذين أسهم معظمهم في انتفاضات اجتماعية، والذين يشخص

كل منهم بصورة بارزة فى الشئون الروحية . ومع يسوع ، كان أبطال العهد القديم الذين يحبهم الرقيق قد واجهوا صعوبات ومشاق مرعبة قبل أن يحرزوا الانتصارات الزاهية . وكان العبيد يرون فى هذه الصعوبات ما يتشابه مع الاضطهاد والكبت اللذين يعانون منهما ، ويرون فى قصص النجاح التى يتحدث عنها الكتاب المقدس بشائر لتحررهم الآتى على نمط الكتاب المقدس . . .

وإذ عبر الأمريكيون الأفريقيون عن ولعهم الخاص بموسى ، شاع اعتبارهم صنواً للشعب المختار الأسير فى مصر - وهو تشبيه واضح فى كثير من الأمور الروحية حول موسى ، وفرعون ، والبحر الأحمر ، والبرية/ أو الأرض الموعودة . . . وفى سنة ١٨٠٨م فسّر الواعظ الأمريكى الأفريقى البارز أبسالوم چونز قانوناً وطنياً يحرم تجارة الرقيق على أنه عمل من أعمال العناية الإلهية يساوى الخروج . وتماثلاً مثلما «هبط الرب لكى يخلص» الإسرائيليين من المصريين ، أعلن چونز أنه «هبط فى البرلمان البريطانى» حينما جرّم السفن التى تحمل الرقيق ، «وهبط فى الكونجرس بالولايات المتحدة» عندما وافق على حظر مماثل .

وحتى قبل نهاية الرق ، بحسب الدليل الذى يقدمه ميللر ، كان الوعاظ السود الذين كانت غالبيتهم أميين ، قد صاغوا تنميظاً پروتستانياً كاملاً كان له أن يمنح الجدارة لمبشر بيوريتانى لجيش كرومويل النموذجى الجديد ، قبل قرنين من الزمان . أما كيف حدث هذا النقل للأفكار ؟ فهو أمر ربما لا نعرفه أبداً ، طالما أن العملية كانت بالضرورة شفوية ولم يتم تسجيلها بدرجة كبيرة . وقد شقت الصحوة العظمى الثانية آثارها داخل جمهرة العبيد السود فى أعماق الجنوب منذ تسعينيات القرن الثامن عشر فصاعداً . ولم يكن بإمكان العبيد أن يقرأوا أو يكتبوا ولكن ثقافتهم كانت بالفعل ثقافة الأغنية والإنشاد ، وجاء التعبير عن المشاعر الدينية بالأغنية متوافقاً معها بصورة طبيعية .

ومضت الأناشيد الدينية الزنجية قُدماً بهذا التراث بدرجة كبيرة . وإحدى الإشارات الباكورة إلى التنميظ البروتستانتى المُطبّق على العبيد السود ، وردت فى مجموعة لمثل هذه الأناشيد الدينية الزنجية نشرها ريتشارد آلن ، الذى كان هو

نفسه واعظاً أسود ثم صار أسقفًا فيما بعد سنة ١٨٠١ م. وإذ كان مطروداً من كنيسة الميثودية المحلية (البيضاء)، أسس ما صار يعرف باسم «الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية». ولكن «مثال الخروج» التنميطى هذا للعبيد السود كان من الواضح أنه لم يكن معروفاً لـجون ويسلى مؤسس هذا المذهب البروتستانتى الميثودى، على الرغم من أنه كان من أوائل المعارضين الإنجليز للرق. وهكذا ربما يكون التنميط البروتستانتى قد أدخل إلى المسيحية السوداء من التراث التغميدى الذى يضرب بجذوره فى البروتستانتية الكالفينية، وليس من الجانب الميثودى.

بل إن دقة هذا النقل للتنميط من البروتستانتية البيضاء إلى البروتستانتية السوداء قد امتد حتى إلى مفهوم «الزمن المقدس» الذى كان يعرف من وجهة النظر اللاهوتية بأنه تاريخ الخلاص. والذى تحولت الحوادث الماضية عن طريقه إلى حوادث معاصرة. ويشرح ميللر كيف تبنى الوعاظ السود هذه المبادئ:

«يمكن للتنميط أن ينطبق على الحاضر أيضاً؛ لأن المسيحيين قد يعاملون الأشخاص والحوادث التى ذكرها الكتاب المقدس على أنها أنماط يتكرر حدوثها عبر الوجود الإنسانى حتى اللحظة الحاضرة. ومن ثم، فإن التنميط يقولب التاريخ فى نماذج حسب أشكال من التجارب يمكن معرفتها وقابلة للتكرار. إنه لا يقدم ببساطة مجرد نظام من الرموز؛ لأن المؤمنين يرون فى الحوادث التنميطية حقيقة حرفية. كما أن التنميط لا يستدعى التشابه؛ لأن التنميط، بخلاف التشابه، يقدم ويدعم رؤية شاملة ومتماسكة للعالم، توائم التجربة البشرية فى نظام من التفسير يتسم بالمرونة والعنف فى آن واحد».

ودور العناية الإلهية فى هذا التنميط الأسود واضح، أما ما هو أقل وضوحاً، فهو يتعلق بمن بالضبط الذى يؤدى الأدوار الأخرى فى الدراما التنميطية الخاصة بالتحريض/ الخلاص الأسود. من الكنعانيون؟، مثلاً، وأين الأرض الموعودة؟ وما العلاقة بين هذا الشعب المختار الأسود ومن سبقوه فى ادعاء اللقب لأنفسهم؟، خاصة الشعب المختار الأبيض الذى نشأ أصلاً من المستوطنين البيوريتان الأوائل

فى نىوانجلانء؟ هل تم ءجاوزهم بكل مغزى وءلائل الءجاوز الءى ناقشناها فى الفصل الءالء؟ وهل الشعب المءءار الءءىء سىءم ءءىءه على أساس عرقى (مثل الشعب المءءار فى العهد القءىم) أم أن أى إنسان يمكن أن ىضم إلهه؟

وربما كان ىبغى أن ءكون إءابة الواعظ الأسود هى أن الءراما لم ءءشف سوى إلى هءا الءء، وأن الشعب المءءار ما ىزال فى رحلءه بعء الأسر عبء البرهه، ولم ءقع أبصارهم بعء على الءهه الءى ىقصدونها. وربما كانت للأسءلة المءروءة فى السءور السابئة إءابات، ىء أنه لم ىءم الءوصل إلهها بعء. ومن المءءمل أكثر أن الءنمىء قد بءأ ىنهار وىصبع مءرء مءاز بلاغى، بءىء ىفقد ءاصهه الإعءازه الءى ىشفر إلهها مللر، وأن الأرض الموعوءة قد ءمء صهاغءها بشكل روحى فى ءالة عاطفهه، أو سىاسهه أو اقءصاءهه. الءءرر من العبوءهه، والمساواة، ونهائه الانءىاز العنصرى، وءكافؤ الفرص، وكل الأهداف الأءرى الءى ءسعى إلهها ءركة الءقوق المءنهه العلمانهه. فعلى سببل المءال أعلن الواعظ الأسود ل. ء. ءوبن، بعء ءمسفن سنة من «إعلان الءءرر» أنهم وصلوا إلى ءءوء الأرض الموعوءة «وأرض كنعان الءى ننال فىها ءقوق المواءة أمامنا بالضبء». وبءلك ىكون أولئك الءفن عارضوا إعطاء السود ءقوق مواءة مساویه هم الكنعانفن الءفن قاوموا ءءول الشعب المءءار.

وءلك مءاز واستعاره بلاغهه لطفهه، ولكن أهمهه الكنعانفن فى العهد القءىم ءمءل فى أنهم كانوا أساساً من عبءه الأصنام، ىعبءون آلهه مزفهه وىغرون الإسراءلففن بأن ىفعلوا مءلهم. وفى نموءء ءوبن، فإن الكنعانفن (هم الءفن ىؤمنون بالءفوء من البفض، ولفس مءرء المءطرففن، ولكن رأى الأغلبهه البفضاء فى الوقت الءى كان ىءءء فىه) هم بالءءءىء الءفن ىرفضون السماع للناس السود بأن ىصفروا مءلهم. أى ىرفضون السماع لهم بأن ىؤمنوا بالعقاءء وأن ىعبءوا الآلهه الءى ىعبءها المءءمع الأفض (الءفموقراطفه والمساواة والرأسمالهه، والماءفه وأى شىء آءر) ولفس أنهم ىصرون أن ىفعلوا ذلك. وهءا قلب ءطفر للأوضاع.

وإذ كان اللاهوتيون البيض قد تخلّوا عن التنميط البروتستانتي باعتباره موضوعاً جديراً بالتأمل اللاهوتي الجاد فى وقت ما من القرن التاسع عشر فإن اللاهوتيين السود أمامهم عوائق تحول دونهم إذا ما رغبوا فى إخضاع تراثهم الخاص لدرجة من التحقيق الصارم. بيد أنهم ليسوا وحدهم تماماً؛ إذ إن السنوات الثلاثين الأخيرة قد شهدت تطور عدة مدارس حديثة فى «لاهوت الخروج»، أبرزها ما يسمى «لاهوت التحرير بين الكاثوليك الرومان فى أمريكا اللاتينية». وهى أقل حرفية من حيث إنها لا تحتاج مباشرة من حوادث وشخصيات الكتاب المقدس إلى حوادث وشخصيات الحاضر. ذلك أن هناك أسباباً تدعونا للظن بأن مارتين لوتر كنج، انطلاقاً من دوائره التعليمية والفكرية التى كان يتحرك فيها، كان يدرك هذا، حتى لو كان قد اغتيل فى ذات الوقت الذى كان فيه لاهوت التحرير قد بدأ يسترعى انتباه المفكرين- ويستدعى الهجوم الشرس- فى العالم الأوسع.

لقد تولى كنج زمام شكل دينى لحركة الحقوق المدنية كان أكثر وضوحاً داخل الجماعة السوداء منها خارجها. وحتى الآن، فإن تعامل البيض مع الحقوق المدنية فى الثقافة الشعبية- أفلام هوليوود مثل فيلم «Mississippi Burning» مثلاً- يميل إلى التعاطف مع الديانة السوداء باعتبارها مصدراً ساذجاً للراحة، وليس باعتبارها الحافة القاطعة لاحتجاج السود. كما أن الثقافة الشعبية لا تعطى الجدارة- وهنا يكون فيلم آلان پاركر مذبذباً مرة أخرى- لمذهب كنج عن اللاعنف وعن القوة الخلاصية للمعاناة الظالمة. فقد كان منهجه المختار فى النشاط السياسى مُصاغاً بعناية حسب نموذج المهاتما غاندى، ولكنه يستلهم تعاليم العهد الجديد مباشرة مثل خطبة يسوع فوق الجبل. وحتى الآن، لم يتم تقدير المغزى الحقيقى لهذا بشكل صحيح. وكمجتمع يحترم العنف ومن يستخدمونه، فإن اللاعنف لم يكن يروق للمزاج الأمريكى، ومن ثم، فإن اللاعنف، مهما كان استخدامه ناجحاً، يصير خفياً ويكاد يكون منسياً.

لقد عمل كنج داخل إطار المذهب الذى كان راسخاً بالفعل والقائل بأن السود «شعب» وليسوا مجرد مجموعة من الأفراد ذوى الأصول المتشابهة والبشرة

المتماثلة . وقد استخدمت كلمة «شعب» استخدامًا تنميطيًا؛ لكى تعنى : «نحن الإسرائيليون المحدثون، شعب الرب، شعبه المختار» . (وهذا يثير السؤال : عما إذا كانت كلمة «سود» يجب أن تُستغل؟ ، والواقع عما إذا كانت كلمة «بيض»، باسم الاتساق، يجب أن تُستغل أيضًا؟ . وفى نص مثل هذا الفصل ليست هناك إجابات شافية على مثل هذه الأسئلة) . وكلمة «شعب» ليست بالضرورة مساوية لكلمة جنس بالمعنى العرقى الضيق؛ لأن كثيرين من أولئك المقبولين أعضاء فيه ربما يكون نصف، أو ربع، سود «خالصين» عن طريق اختلاط الأبوين أو الجددين . وهى تقترب أكثر من فكرة «الأمة» حسبما استخدمها بندكت أندرسون فى نظريته عن «الجماعات المُتخيَّلة» - باعتبارها «علاقة رفقة أفقية عميقة» تحدد «الناس الذين مثلنا» وتفصلهم عن «الناس الذين ليسوا مثلنا» .

وفى حالة الناس السود - «الجماعة السوداء» أو «جماعة الأمريكيين الأفارقة» ستكون هى التعبير المعاصر - كان لتحديد من نحن تاريخيًا ارتباط كبير بتحديد من «هم» الذين يقولون «نحن»؛ إذ إن السود قبلوا أولئك الذين قالت عنهم الجماعة البيضاء : إنهم سود باعتبارهم سودًا، وهو أمر فى العلاقات العنصرية الأمريكية، فى الماضى على الأقل، كان يعنى أولئك الذين تم رفضهم؛ لأنهم لم يكونوا بيضًا بالقدر الكافى (ربما لأن أصولهم العنصرية مختلطة) . وقد تخيلت الجماعة الأنجلوسكسونية البيضاء «المُتخيَّلة» نفسها على أنها جماعة بيضاء البشرة، أو كانت تتخيل ذلك على الأقل منذ حركة تحرير الرقيق . وقبل ذلك، وفى ظل قوانين الرق كانت مكانة العبد أو الحر، فى حالة اختلاط عنصرى الأبوين، تتحدد بوضعية الأم، (وليس مصادفة أن هذا يتماشى مع تحديد اليهودى فى التوراة الشفوية الهاالاكاه، أو الشريعة اليهودية القديمة) . وعلى الأقل فى القرن الثامن عشر، كان التراث فى انجلترا نفسها - حيث كان الرق غير قانونى - مختلفًا : إذ كان يمكن قبول المرء باعتباره سيدًا إنجليزيًا أسود (أو مختلط العرق) إذا ما كانت بحوزته أوراق الاعتماد الاجتماعية .

وفى ظل الرق، إذا ولدت امرأة بيضاء طفلًا مختلط العرق أنجبته من رجل أسود

لم يكن الطفل ليخضع للرق؛ وعلى العكس، كان الطفل يصير عبداً إذا أنجبته امرأة سوداء من رجل أبيض. وبقدر ما كان المظهر يبدو، لم يكن ممكناً، على أية حال، فصل الحالتين عن بعضهما، ولذلك فإنه حتى الشخص الحر ذا الأصول المختلطة، وأمه امرأة بيضاء، كان لا بد أن يواجه بعض الصعوبة حتى لا يُحسب عبداً. وربما لا يكون مدهشاً أن عضوية مثل هذا الشخص في الجماعة البيضاء كانت تُعتبر تجريبية بطريقة ما. وأي شخص أسود أو من أصول عرقية مختلطة كان يُعامل باعتباره عبداً إلا إذا أثبت العكس. وبعد إلغاء قوانين الرقيق، عندما تم إضفاء الشكل الرسمي على التفرقة العنصرية في ظل نظام جيم كرو، كان وجود أحد الوالدين من السود في زيجة مختلطة يحدد وضعية الشخص بأنه أسود من الناحية القانونية. وليس هناك منطق في هذا، طالما أن شخصاً ما نصف ونصف كان يمكن اعتباره نظرياً عضواً في أي من المجموعتين أو في كليتهما. بيد أن القاعدة تؤكد على فهم السواد على أنه شيء يُلطخ أو ينجس، أو يلوث البياض: وكان للنازي تعامل مشابه مع الناس الذين ولدوا لأبوين أحدهما يهودي والآخر أري. وإذا كان أحد الجدود يهودياً كان هذا كافياً لحرمان أي شخص من مكانة الأري «النقي».

وهكذا امتدت عضوية الجماعة السوداء لتشمل كل أولئك المستبعدين من الجماعة البيضاء. ومرة أخرى، إذا أخذنا في اعتبارنا تحديد أندرسون «للجماعة المُتخيلة» فإن «الرفقة الأفقية العميقة» التي يتحدث عنها هنا تشير إلى تجربة مشتركة من الاستبعاد العنصري والانحياز. وهذا أمر مسيحي معترف به بطريقة شاملة ويفترض وجود إدراك حاذق من التضامن باعتباره مبدأ أخلاقياً (وبعض التآمل الواعي في مثل السامري الطيب، على سبيل المثال). ولا يعني هذا أن الجماعة البيضاء قد سُمح لها بأن تحدد الجماعة السوداء بسياسة الاستبعاد التي انتهجتها: وإنما تعني أن الجماعة السوداء قد قررت لنفسها أن تتبنى «معاناة عنصرية مشتركة»، باعتبارها العلامة المميزة لأولئك الذين اختاروا أن تشعر معهم «بالرفقة الأفقية العميقة».

أما ما أعاد فرض هذا الإحساس بشعب مختار أسود منفصل فكان فشل

البروتستانت البيض، حتى من يبشرون بالإنجيل الاجتماعى التحررى (المعادل الأمريكى للاشتراكية المسيحية الإنجليزىة)، فى تحديد، والاحتجاج على، الأدلة المتزايدة على الفصل العنصرى، والتعصب فى الجنوب ما بعد الحرب الأهلية. إذ لم يكن هناك تضامن كاف مع البروتستانت؛ لكى يهدم أسوار الفصل الدينى الذى كان بالفعل قد قسم الطوائف الرئيسية (فيما عدا الكنيسة الأسقفية والكاثوليك الرومان) إلى فرعين متمايزين أبيض وأسود من نفس الكنائس. وعلى أية حال، لم تكن البروتستانتية السوداء تحررية بشكل خاص، لا من الناحية اللاهوتية ولا من الناحية الأخلاقية؛ إذ كانت البروتستانتية السوداء ستبدو أصولية بشكل غير مرض بالنسبة لأى لاهوتى من التيار الرئيسى فى كلية من كليات «إيفى ليغ-Ivy League»، ومن ثم لم يكن من السهل عبور الحدود العنصرية للوصول إلى الأفكار التحررية لدى البيض، «لم يحدث أبداً أن برز العنصر على أنه موضوع دينى سائد بالنسبة إلى البيض قبل مقاطعة حافلات مونتهجومرى سنة ١٩٥٥م» حسبما يكتب ميللر، «لقد كان ذلك الحادث هو الذى جلب لمارتن لوتر كنج الشهرة العالمية».

فقد اعتبر كنج أن الإنجيل الاجتماعى يعيد وضع المكون الأساسى المفقود فى النزعة الفردية التى تميز البروتستانت البيض، بحيث يدين أية «ديانة تتعامل مع أرواح البشر ولا تهتم بتلك الأحياء القذرة التى تلعنهم...» على أنها أوشكت على الموت روحياً، بيد أن نوع البروتستانتية السوداء الذى قدمه لم يكن بحاجة إلى إنجيل اجتماعى لكى يذكره بذلك، كما أن نضاله العام من أجل الإنجيل الاجتماعى كان قائماً على أساس خلق قضية مشتركة مع البروتستانتية البيضاء، بدلاً من أن يقدم إضافة مهمة إلى عقيدته الخاصة. وبعبارة أخرى، كان للبروتستانتية السوداء إنجيلها الاجتماعى الخاص بها، ومنذ وقت طويل قبل أن يصك والتر روشينبوش (مؤلف «Christianizing The Social Order» سنة ١٩١٢م). ولا بد أن التبشير بالعدالة الاجتماعية كان علامة مميزة لكل موعظة سمعها كنج فى حياته؛ لأن هذا كان قد صار التفسير الأسود المعتاد للعهد القديم منذ أيام العبودية. لقد كان ذلك النتيجة المباشرة لاعتبار السود تنميطاً شعباً يتنمى للكتاب المقدس - مثل الإسرائيليين القدامى فى هروبهم من استعباد المصريين لهم.

ولم تكن مشكلة كنج هي الاضطرار إلى إقناع المسيحيين السود بأن الفصل العنصرى أمر يناقض كلمة الرب . وإنما كانت مشكلته مع المسيحية البيضاء لا سيما رأى الأغلبية فى أوساط البروتستانت فى الولايات المتحدة (على الرغم من أنه كان منتشرًا بين السود الأعظم أكثر منه بين الزعماء)، وهو الرأى الذى كان يرغب فى مجرد «حائط فصل» بين الكنيسة والدولة (على حد تعبير جيفرسون) بل حائط فصل أعلى فى بنيانه بين الدين والسياسة، ولم يكن هناك تصريح بمثل هذا الحائط فى الكتاب المقدس- «... أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢ : ٢١) وهو نص لا يقترب من الحالة بأى شكل . ولكن المذهب الكاثيلى الذى اعتنقه الرواد الأوائل فى نيوانجلاند، الذى كان آنذاك منتشرًا بشكل واسع وإن كان ضعيفًا فى أعماق الجنوب، قد مرر الرسالة القائلة بأنه إذا كان الازدهار علامة على موافقة الرب، فإن الفشل، والخراب والجهل والدونية الاجتماعية، كانت علامات على عدم موافقة الرب . وثمة قطعة علمية مزيفة لتعزيز هذا قدمتها النظريات المزورة التى قدمها الداروينيون الاجتماعيون الذين اعتقدوا أن النظام الفئوى فى المجتمع الأمريكى - الذى كان قد ألغى الأرستقراطية وورث الامتيازات الطبقية - كان انعكاسًا لمبدأ البقاء للأفضل . ومن ثم فإن أولئك الذين بقوا فى أدنى مستوى كانوا هم الذين لا يصلحون، كما أن الحالة الاقتصادية المتدنية للسود كشفت عن أنهم ضمن هذه الفئة.

وبدا أن هذا كله يتعزز باللعة التى انصبت على نسل حام - نسله من ابنه الذى سُمى كنعان؛ ليكون خليقًا بهذه اللعة - التى وردت فى سفر التكوين (٩ : ٢٥) والتى حكمت عليهم جميعًا بالعبودية الدائمة «فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته»^(*). ولكن فوق هذا كله، فإن الكاثيلى لم تتخل تمامًا عن القدرية التى عرفت «المختارين» بأنهم أولئك المعروفون فعلاً للرب، المجموعة المغلقة،

(*) ملخص القصة التوراتية: أن نوحًا شرب حتى سكر، وبعد أن سكر تعرى، فرأى عورته ابنه حام، فأخبر أخويه سام ويافت، فدخلوا الخيمة فغطوا عورة أبيهما نوح - دون أن ينظروا إلى عورته - وعلم نوح ذلك عندما أفاق من السكر، فإذا به يلعن كنعان بن حام ويقول قولته الشهيرة التى تبرر عبودية الكنعانيين للساميين - المترجم .

القبيلة الإنجليزية البيضاء، الشعب المختار المرثى الذين كانوا أول من اعتنق البروتستانتية من الأنجلوسكسون. ونظريات كل من چون بيل وچون فوكس التاريخية عن أن المسيحيين الأصليين الخَلص هم الإنجليز، والذين زُرعت عقيدتهم داخل الذكرى الحية للمسيح نفسه على يد يوسف الرامى، هذه النظريات تركت على الأقل شائعة عن أن أولئك الذين يمكنهم الزعم بأنهم يحملون دماء أنجلوسكسونية طيبة هم المقربون من الرب بصفة خاصة. وقد امتدت هذه الشائعة فى أعماق الجنوب فى جوهر أيديولوجية الكلوكلوكلان.

والنسخة المتطرفة لمثل هذا التفكير الأسطورى تمثلت فيما يسمى حركة «الإسرائيليين البريطانيين»، التى اجتذبت فى البداية انتباه الناس فى القرن التاسع عشر بزعمها أن البريطانيين كانوا نسلًا حقيقيًا (جينيًا)، للقبائل العشر المفقودة الأسطورية من بنى إسرائيل، والتى اختفت من تاريخ الكتاب المقدس بعد أن استولى الآشوريون على المملكة الشمالية. وهكذا فإن «الحجر» المستخدم فى حفلات التتويج البريطانية، كان يقال: إن أصله يرجع إلى الملك داود (النبي) وحُمِل إلى اسكتلندا للحفاظ عليه. وفى وقت ما زار يسوع نفسه القبائل العشر. هذا الاختراع - لأن مصطلح «أسطورة» يعطيه جدارة لا يستحقها - يبدو أنه السبب وراء تساؤل وليم بليك الشهير فى ترنيمة «القدس»:

وهل هذه الأقدام فى الزمن القديم

كانت تمشى فوق جبال انجلترا الخضراء؟

وهل كان حَمَل الرب المقدس

قد شوهد فوق مراعى انجلترا البهيجة؟

كان زعم الإسرائيليين البريطانيين شائعًا على مدى فترة من الزمن على اعتبار أنه أساس وطنى للإمبراطورية البريطانية. ومن بين أولئك الذين لم يوافقوا عليه كان أولئك الذين أحسوا أنه يقلص من قوة الرأى الأكثر شيوعًا وشبه الرسمى، بأن البريطانيين هم السلالة الروحية (ولكن ليس الفعلية) للشعب العبرانى. وهناك

جماعات أمريكية على أقصى اليمين تصرح بصيغة نشأت في البلاد عن أصل الاعتقاد في الإسرائيليين البريطانيين، ويخلطون هذا بالأساطير النازية عن الجنس الآري؛ ومن نافلة القول أن نقول: إنهم فاشيون. وتظهر صيغة أخرى مختلفة تماماً في نظام الإيمان لدى طائفة المورمون.

وفكرة «الشعب المختار» في الكالفينية الجديدة عن ميثاق أمريكي أبيض مع الرب كانت لها نتائجها وعواقبها؛ إذ إنها حددت الأرض الموعودة - شبه القارة الأمريكية الشمالية - كما أنها حددت أيضاً أعداء البروتستانت الأمريكيين البيض. وكانوا يتمثلون إما في الفئات الكلاسيكية التي تم تجاوزها، مثل البريطانيين واليهود والكاثوليك - الذين كان الرب قد تبرأ منهم - أو الفئات الكنعانية الكلاسيكية، من الأمريكيين الأصليين والسود - والذين كان الرب قد لعنهم وجعلهم في مكانة أدنى، وفي كل حالة أوضح التمييز البروتستانتي كيف كان يمكن التعامل معهم. فلم يكن الكاثوليك واليهود والسود يستحقون معاملة أفضل من معاملة أعداء شعب الله المختار القديم تحت قيادة موسى، ويوشع وجدعون والباقيين. وكان أي عدو للقبيلة البروتستانتية البيضاء يعتبر عدواً للرب؛ ودفاعاً عن القبيلة البيضاء، كان القتل مباحاً في النهاية. هذا التمييز - الذي كان يمكن الزعم بأنه مستمد من الكتاب المقدس بشكل جامد - كان قد انطلق في الجنوب بعد الحرب الأهلية ليحل محل الأيديولوجية القديمة عن الطبقة والنشأة والهيراركية و«الالتزام النبيل» الذي «ذهب مع الريح» عندما سار شيرمان عبر جورجيا يدمر كل ما يقابله.

وبحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، كان هناك افتراضان ناضجان ولكنهما متنافسان ولا يمكن التوفيق بينهما بأي حال، عن وضع «الشعب المختار» في الجنوب، ويدعى كل منهما أن الكتاب المقدس مصدره ولكل منهما تنميته الخاص اعتماداً على الكتاب المقدس. وبينما كانا متعارضين، وقد سحب كل منهما خنجره ليطعن الآخر، كانت حركة الحقوق المدنية تطالب باستكمال أجنحة ما بعد الحرب الأهلية التي عبر عنها لينكولن في خطابه في جيتسبرج. هذا التصوير الديني لأزمة العلاقات العنصرية في أمريكا في خمسينيات وستينيات القرن

العشرين ليس هو التصوير العلماني ولا الماركسي، الذي كان المعلقون يفضلونه عادة، ولكن مما لا شك فيه أنه كانت له قوة أكبر في شرح الأزمة أو إلقاء الضوء عليها. كما كانت له أيضاً تضمينات مهمة بالنسبة للعلاقات العنصرية البريطانية.

وإذا كانت أهم موعظة أُلقيت في أمريكا في القرن الثامن عشر هي التي تحمل عنوان: «الخطاة بين يدي رب غاضب» والتي ألقاها جوناثان إدواردز، فمن المؤكد أن أهم خطبة وعظية أمريكية في القرن العشرين هي التي تحمل عنوان: «أنا عندى حلم» والتي ألقاها مارتن لوثر كنج أمام حشد من مائتى ألف شخص في واشنطن في أغسطس سنة ١٩٦٣ م. وهي قطعة بلاغية جميلة التأليف، فهي على الأقل تنافس أية خطبة من خطب ونستون تشرشل (الذى حظى باعتراف واسع بأنه أعظم خطيب باللغة الإنجليزية في القرن العشرين)، وقد ألقاها شخص ما له أذن حساسة تجاه التوازن في كل عبارة وصوت كل مقطع. كان هذا درس حياته كواعظ أسود، بالإضافة إلى موهبته الخاصة النادرة.

وتبدأ ترنيمة «أنا عندى حلم» بأن يذكر سامعيه. ولكن أساساً سامعيه الغائبين. أى أمريكا البيضاء. بعودها لأمريكا السوداء. وهو يشير إلى إعلان الاستقلال، وخطاب جتيسبرج، وإعلان تحرير الرق، ويقتبس منهم بطريقة مفحمة. وفي البداية تبدو الترنيمة علمانية إلى حد كبير، على الرغم من بؤرتها الأخلاقية القوية. ولا تبدأ الخطبة في اتخاذ شكل الموعظة سوى في منتصفها، وعلى الرغم من أن كنج كان قد اتخذ بالفعل طريق المبشر في طرح قضية مثل استخدام عبارات متكررة دوارة:

«هناك أولئك الذين يسألون المدافعين عن الحقوق المدنية متى سترضون؟ إننا لن نرضى أبداً طالما أن الزوج ضحية للرب الذي لا يوصف من جراء قسوة الشرطة. إننا لن نرضى أبداً طالما أن أجسادنا التي أرهقها السفر، لا يمكن أن تسكن النزل على الطرق السريعة أو الفنادق في المدن. إننا لن نرضى أبداً طالما أن حراك الزوج هو فقط من معزل صغير إلى معزل أكبر. إننا لن نرضى أبداً أن أطفالنا مجردون من ذواتهم ومسلوبون من كبريائهم بواسطة العلامات التي تقرر «للبيض

فقط». إننا لا يمكن أن نرضى طالما أن أى زنجى فى الميسيسيبي لا يمكن أن يدلى بصوته وأى زنجى فى نيويورك يعتقد بأنه لا يملك شيئاً يصوت من أجله. لا، لا، نحن لسنا راضين ولن نرضى حتى «تدفع العدالة مثل المياه وينساب الحق مثل المجرى العظيم».

... وهو ما يكون حينما يصبح الخطاب موعظة؛ لأن هذه هى كلمات النبى عاموس «وليجر الحق كالمياه والبر كنهز دائم» (عاموس ٥ : ٢٤). وعندما يصل إلى أشهر فقرة، تكون العبارة التكرارية هى عبارة العنوان: «عندى حلم». ولكن لديه مفاجأة الواعظ فى النهاية. فمن الحالم بالضبط؟

«أقول اليوم لكم يا أصدقائى، حتى ونحن نواجه صعوبات اليوم والغد، إننى ما يزال عندى حلم. وهو حلم يضرب بجذوره فى أعماق الحلم الأمريكى.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستنهض هذه الأمة وتعيش حسب عقيدتها الحقة: نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها بديهيات، أن البشر جميعاً قد خلقوا سواء.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما على تلال جورجيا الحمراء، سيكون بوسع أبناء العبيد السابقين وأبناء ملاك العبيد السابقين أن يجلسوا سوياً على مائدة الأخوة.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستتحول ولاية الميسيسيبي، وهى ولاية ألهيبتها حرارة العدالة، وأرهقتها حرارة الاضطهاد، إلى واحة للحرية والعدالة.

إن عندى حلمًا بأن أطفالى الأربعة الصغار سوف يعيشون يوماً ما فى وطن لا يُحكم فيه عليهم بلون بشرتهم ولكن بمضمون شخصيتهم. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما فى آلاباما، التى تعج بالعنصرين الأقحاح، والتى يتفوه حاكمها بكلمات «الاعتراض» و«عدم الشرعية» يوماً ما هناك فى آلاباما سيكون الصبية والصبايا السود الصغار قادرين على أن يشبكوا أيديهم فى أيدي الصبية والصبايا البيض الصغار كإخوة وأخوات. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه ذات يوم سيتم إعلاء كل واد، وخفض كل تل وجبل؛

والأماكن الوعرة سوف تمهد، والأماكن الملتوية ستصير مستقيمة، وسيتجلى مجد الرب، وسيراه كل البشر سوياً».

وهذه ليست رؤيا كنج وإنما هي رؤيا النبي إشعيا. وكان بوسع مستمعيه أن يتعرفوا عليها في الحال، وهي مساهمة قيمة في فهم الكيفية التي كانت تسمع بها كلماته أن تقدم السياق الروحي الأوسع. وهذا يجيب أيضاً على السؤال: من الذي يحلم؟ إنه كنج، بيد أنه يحلم حلم إشعيا، كما أن إشعيا يكرر كلمة الرب. إنه باختصار حلم الرب. ونص إشعيا بالكامل (٤٠: ١-٥):

«عزوا عزوا شعبي، يقول إلهكم. طيخوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل أن إثمها قد عُفِيَ عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها.

صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب. قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا، كل وطاء يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً لأن فم الرب تكلم».

إنه ليس فقط إعلاناً للعدالة الوشيكة. هذه الفقرة، مثل فقرات أخرى في سفر إشعيا، تتطلع صوب عصر مسيحاني جديد. فالكلمات (كما عرف سامعوه) ترد مرات ومرات في الكتاب المقدس، بواسطة يوحنا المعمدان، الذي يتنبأ بقدوم المسيح الوشيك ومطالبة الشعب بالاستعداد له بالتوبة:

«في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية. فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعيا النبي القائل: صوت صارخ في البرية، أعدوا طريق الرب اصنعوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً. كل واد يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة. ويبصر كل بشر خلاص الله» (لوقا ٣: ٢-٦).

ثم يظهر نبي ثالث من أنبياء الكتاب المقدس: دانيال. وعرض كيث ميللر للنص لا يحتاج إلى مزيد من التعليق:

«وباتباع التكرار لعبارة «إن عندى حلمًا» أثار «كنج» الفكرة الأخروية فى الكتاب المقدس بإعادة إنتاج تصوير ما قاله النبى دانيال «بهذا الإيمان سنكون قادرين على أن ننحت من جبل اليأس حجرًا للأمل». وإذا كان دانيال يفسر حلمًا شهيرًا للملك «نبوخذ نصر»، يصف حجرًا يسحق تمثالاً صنع من المعادن الثمينة، والحديد، والصلصال. وإذا نحته الرب من أحد الجبال، فإن الحجر يرمز إلى مملكة الرب المثالية التى تدمر كل الممالك الأرضية التافهة ويبقى هو للأبد. وعلى أية حال، فإنه فى خطبة كنج، يستخرج البشر الحجر من الجبل دون أن يتظنوا بسلبية أن يخلق الرب مملكة جديدة بنفسه خلقًا تامًا. وإذا مثلت بالصخرة من الجبل، فإن وصول مملكة دانيال المثالية يتصادف مع وصول مملكة إشعيا ذات الأودية المرفوعة والجبال المنخفضة. وقد عالج كنج بخبرة رموز الجبل من دانيال وإشعيا عندما ابتدع صورة الجماعة الكاملة» [وردت القصة فى الإصحاح الثانى من سفر دانيال].

وبعبارة أخرى، هذا هو الحلم القديم للنزعة الألفية فى الهروتستانتية: رؤيا عالم كامل يحكم فيه المسيح على مدى ألف سنة. وبينما يوضح التلميذ الهروتستانتى مرة بعد مرة، فإن دور الشعب المختار هو إحضارها إلى الوجود. إنهم المولودون الذين سيجعلون المجيء الثانى للمسيح، بعملهم من أجل العدالة.

وإنها أمريكا، ما تزال هى الأرض الموعودة التى سوف يحدث فيها هذا؛ إذ إن عقيدة كنج فى الخلاص هى فى النهاية نفس العقيدة الأمريكية، شأنه فى ذلك شأن كل من سبقوه، سواء من السود أو البيض. وأية شكوك يمحوها ختامه لخطبته الرنانة، عندما يصير موضوع إشعيا عن الجبال التى تغيرت هيئتها هو الحلم الأمريكى ذاته، وهى صهر نبوءة فى العهد القديم مع النشيد الوطنى الأمريكى:

«سيكون هذا هو اليوم الذى ينشد فيه جميع أبناء الرب بمعنى جديد:

إن بلادى منك

أرض الحرية الحلوة

عنك أغنى
الأرض التى مات فيها آبائى
أرض فخر الحجاج
من كافة جوانب الجبال
دع أجراس الحرية تدق
ولهذا دع الحرية تدق أجراسها من قمم التلال المدهشة فى نيوها مبشير
دع أجراس الحرية تدق من جبال نيويورك العظيمة
دع أجراس الحرية تدق من جبال بنسلفانيا المتعالية
دع أجراس الحرية تدق من جبال الروكى ذات القمم الثلجية فى كلورادو
دع أجراس الحرية تدق من منحدرات كاليفورنيا المنحنية
ولكن ليس هذا فقط : دع أجراس الحرية تدق من جبل الصخر فى جورجيا
دع أجراس الحرية تدق من جبل لوك أوت فى تينيسى
دع أجراس الحرية تدق من كل تل وكومة فى الميسيسيبى
من كافة جوانب الجبال ، دع أجراس الحرية تدق
ثم يعود أخيراً إلى جذوره كواعظ أسود؛ لكى «يعلن سنة الرب المقبولة»
ويلخص الألفية :

«وعندما يحدث هذا ، حينما نسمح لأجراس الحرية أن تدق ، حينما ندعوها
تدق من كل قرية وكل محلة ، من كل ولاية ، ومن كل مدينة ، سنكون قادرين على
أن نسرع مجيء ذلك اليوم ، الذى فيه كل أبناء الرب ، من السود والبيض ، من
اليهود والأغيار ، سيكونون قادرين على أن يشبكوا أيديهم وينشدوا فى كلمات
الأغاني الدينية الزنجية القديمة : الحرية أخيراً ! شكراً للرب العظيم ، لقد تحررنا
أخيراً» .

لأن تلك كما كان يعرف كل مسيحي أسود سمعه حتمًا، كانت أغنية نهاية الزمان. وهكذا قدم مارتن لوثر كنج في موعظته ليس فقط دعوة موجهة ونبيلة بالتصرف لتصحيح الأخطاء العنصرية؛ وإنما قدم «لاهوتًا لأمريكا» متجددًا ومكتملاً، وهو على اتساق مع تراث طويل من التبشير البروتستانتي المستمد من سفر الرؤيا، سواء أبيض أو أسود. فأمريكا السوداء يفترض أن تكون الأمة المخلصة، «ضوء على الأمميين»؛ أما أمريكا البيضاء فهي الأمة التي تنال الخلاص. وخلاصها يبشر بزمن النهاية، أي بداية مملكة المسيح على الأرض. ولا بد أنها كانت تجميعًا لافتًا للنظر حتى وإن كانت هي الشيء الوحيد الذي فعله في حياته.

وفي نظرية التنميط على أساس الكتاب المقدس، كان ثمة شعب - قرين للشعب الإسرائيلي في العهد القديم - هو الشعب الأسود الذي كان مضطهدًا، ومن ثم فإنهم بوصفهم شعبًا لا بد أن يتم تحريرهم (من ربة العبودية في مصر... إلخ) بمساعدة الرب ولكن بجهودهم الخاصة. وقدمت حركة الحقوق المدنية الأمريكية نموذجًا اجتذبه أصحاب الحملات الأخرى، ممن رأوا تشابهات بينهم وبين الشعب الأسود وبين شكاواهم وشكاوى السود.

والتضامن والشعور بالقوة التي منحها مفهوم «الشعب» لنضال السود من أجل الحقوق المدنية كان يعتبر ساريًا وفعالًا بالمثل بالنسبة للشواذ جنسيًا، والمعاقين، والمسنين، والنساء وهلم جرا؛ إذ كانت مشاعر العداء تجاه هذه الجماعة قرينة بالعداء الذي خضعت له الجماعة السوداء. وبدأ التصحيح السياسى باعتباره لغة معاداة العنصرية، وطُبق بالتشابه على أولئك الناس المتباينين الذين كانوا أيضًا يرون أنفسهم جماعات مناهضة للاضطهاد. ومن الناحية النظرية، كان مصدر الاضطهاد في حالة الشواذ جنسيًا، والمعوقين، والنساء وما إلى ذلك، هو نفس المصدر بالنسبة للسود. كان المصدر هو مجموع البروتستانت الأنجلوسكسون البيض (WASPS) المحافظين الذين تجلّى موقفهم بأقصى صورة في الطبقة العاملة من الذكور البيض في أعماق الجنوب، والذين كان أكثر رموزهم تطرفًا هو جماعة

الكوكلوكس كلان؛ لأنهم أيضا كانوا «شعباً» بالمعنى الوارد فى الكتاب المقدس، على الرغم من أنهم كانوا يشكلون أغلبية.

وقد ربط مارتن لوثر كنج عدة مرات بين الحملة من أجل الحقوق المدنية الأمريكية وبين حركة مناهضة الاستعمار العالمية، والواقع أنه كانت هناك نقاط تشابه، إذ لم يكن لدى الناس السود فى أفريقيا حقوق متساوية مع حقوق البيض. ولم يصدق هذا على أى مكان أكثر منه فى الجزء الجنوبي من القارة. فبحلول الستينيات، كانت الأغلبية البيضاء فى جنوب أفريقيا. إذ لم يكن للسود حق التصويت. قد أقامت الدولة الوحيدة فى العالم القائمة على أسس عنصرية كاملة؛ حيث كان التمييز العنصرى يحظى بمباركة أعمق حتى من جنوب الولايات المتحدة فى ظل قوانين جيم كرو. وقد أسس البيض فى جنوب أفريقيا أنفسهم على أساس قراءتهم الكالفينية للكتاب المقدس، لا سيما المفهوم القائل بوجود «شعب مختار» أبيض يحتل، تحت ميثاق مقدس، «أرضاً موعودة»، مع اعتبار الأفريقيين الأصليين بمثابة الكنعانيين. ففى سفرهم الطويل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كانوا، مثل الإسرائيليين القدماء، هاربين من «الفرعون» (الذى يظهر فى هذه الدراما فى صورة الملكة ثيكتوريا). كانت مثل هذه الاعتقادات أقرب إلى اللاهوت السياسى لعامة البروتستانت البيض الذى كان مارتن لوثر كنج يقاتله فى بلاده. وعلى الرغم من أن البوير لم يمارسوا الرق فى المصطلحات الأمريكية، فإنهم أيضاً كانوا يعتقدون أن «الكنعانيين» قد وضعهم الرب هناك؛ لكى يخضعوا للحكم، ولكى يتم تحويلهم إلى عمال وخدم.

كانت أيديولوجية «الشعب المختار» لدى البيض فى جنوب أفريقيا، المستمدة من المذهب الكالفينى للكنيسة الهولندية المصلحة، هى التى شيدت أساس نظام الفصل العنصرى. ولكن من سخرية الأقدار أنه كان من داخل الشعب المختار الكالفينى ودائرته المغلقة «Laager» (وهى كلمة تعنى أصلاً دائرة من العربات التى وضعت فى الشكل الدائرى بقصد توفير الحماية ليلاً) أن بدأ نظام الفصل العنصرى يتهاوى، وكان السبب لاهوتياً، إذ لم يكن ممكناً، فى ضوء نصوص مثل تلك التى

وردت في سفر أعمال الرسل (١٠ : ٣٤-٣٥) أن يتم استبعاد السود من اعتناق المسيحية إذا ما كانوا يسعون بإخلاص إلى اعتناقها «بقلب نقي» : «فتفتح بطرس فاه وقال : بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» .

ولهذا سعت الكنيسة الهولندية المُصلّحة في جنوب أفريقيا زمنًا طويلاً لكي تقبل الأفريقيين، و«الجنس المختلط - Cape Coloureds»، وغيرهما من الجماعات غير البيضاء، باعتبارهم مسيحيين بتأسيس كنائس تابعة لكل جنس على حدة يمكن أن تقبلهم فيها. بيد أن هذا التساهل نفسه بنى في المذهب الكالفيني للبيض في جنوب أفريقيا شذوذاً عميقاً. كيف يمكن أن يوجد «شعبان مختاران» أو أكثر في نفس المكان؟ وقد عاد الباحثون المتخصصون في الكتاب المقدس من البيض في جنوب أفريقيا إلى النصوص الأصلية التي كانوا قد أقاموا على أساسها نظرية الفصل العنصري، ورأوا أن التفسيرات الأخرى - بما في ذلك تلك التي أدت إلى الرفض القوي لنظام الفصل العنصري من قبل كنيستهم الهولندية الإصلاحية الأم في هولندا - ممكنة. وبينما كان المفهوم الشعبي - لا سيما في مناطق العالم المتحدة بالإنجليزية - هو أن الفصل العنصري قد تقوض وانهار بسبب العقوبات الدولية، ونضال ANC، وبطولة نيلسون مانديلا وتضامن حركات الحقوق المدنية للسود والحركات المعادية للاستعمار، فالحقيقة هي أن زعماء البيض في جنوب أفريقيا كانوا بالفعل يفقدون الثقة في نظام الفصل العنصري باعتباره إرادة الرب. وعندما قدّم مانديلا للزعامة البيضاء في جنوب أفريقيا مخرجاً من الأزمة، أخذوا به.

كان استخدام السود تحت ظروف أدنى من ظروف توظيف البيض، وإنكار معظم حقوقهم السياسية، قد بات من ملامح الاستعمار الأوروبي في جميع أنحاء أفريقيا وآسيا، وكان الموقف في جنوب أفريقيا، على الرغم من أنه كان متطرفاً، لم يكن موقفاً فريداً بأي حال من الأحوال. ولكن بخلاف المستعمرات، كانت تلك البلاد مستقلة، ومن ثم كانت معزولة، ولم تكن قد مرت بما مر به بقية العالم؛ إذ كان بقية العالم قد مر بأحوال قاسية، هزت تفكيره لا سيما فيما يتعلق بالعلاقات

بين الشعوب والأجناس؛ إذ إن هزيمة «الجنس السائد» النازى فى الحرب العالمية الثانية قد جرد إلى الأبد فكرة أن فرعاً واحداً من الجنس البشرى يتفوق على الآخرين بالفطرة من مصداقيتها. فقد حُوربت قوات هتلر من قبل البريطانيين والأمريكيين؛ بيد أن أسوأ هزائمها كانت على أيدي الجيش الأحمر، الذى يكاد يكون كله مؤلفاً من السلاف، الذين هم بحسب النظرية العنصرية النازية، فى مرتبة أدنى كثيراً من الجنس الآرى وكان ينبغى أن يهزموا بسهولة. وفى الأيديولوجية الفاشية كانت روح القتال أحد المؤشرات الرئيسية على القوة العنصرية. وفى الوقت نفسه شهد الغرب المنطق الجحيمى للتفوق العنصرى عندما ارتد فى صورة الرعب مما تم اكتشافه داخل معسكرات التجميع النازية عندما انتهت الحرب. ومن المستحيل أن نفهم الصدمة الناجمة عن إدراك أن الألمان، الذين كانوا ذات مرة من أكثر شعوب العالم تمدينًا، قد تمت قيادتهم لفعل هذا، والواقع أن الصدمة لم تخف بعد خمسين سنة. وقد قدم النازيون نسخة أخرى من سيناريو شعب الله المختار، على الرغم من أنها ليست نسخة مسيحية. فقد كانوا يعتقدون أنهم مختارون. بواسطة التاريخ، وبواسطة «ضوء العلم المضلل»، والقدر، والمصير وآلهة الراين القدماء؛ فليس من الواضح من هؤلاء اختارهم. لكى يحكموا العالم.

كان هناك قدر قليل من التوسع فى الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن كان ثمة قدر قليل من فهم أن أسس الإمبراطورية قد أرسيت على الأخطاء التى تم ارتكابها بحق شعوب ومجتمعات أخرى. وقد عارض ونستون تشرشل، بوصفه زعيمًا للمعارضة، استقلال الهند سنة ١٩٤٧ م. ولم يلحق به أى ضرر من جراء هذا: فقد فاز فى الانتخابات العامة سنة ١٩٥١ م. كما أن حكومة أتلى العمالية ١٩٤٥ - ١٩٥١ م، على الرغم من نزعتها الاشتراكية، لم تكن هى الأخرى معادية للاستعمار من حيث المبدأ. ويكتب كوريللى بارنيت، فى «The Verdict of Peace»:

«لم تكن حكومة العمال وحدها هى التى تعتقد، فى الفترة التى سادتها نشوة النصر فيما بعد الحرب، أن بريطانيا بوصفها قوة يمكن أن يكون لها مستقبل مثلما كان لها ماض. كذلك كان حزب المحافظين فى المعارضة يعتقد هذا، وكذلك

كان يعتقد الشعب البريطاني ؛ إذ إن القيود العقلية التي فرضها التاريخ الإمبراطورى كانت تكبلهم جميعاً . وبالرغم من أن حكومة العمال تخلت أخيراً عن الهند سنة ١٩٤٧م ، فإنها أبقت بإصرار ، ودونما تمييز ، على كل ما بقى من الالتزامات العسكرية والبحرية التقليدية لبريطانيا فى البحر المتوسط وفى الشرق الأوسط وفى الشرق الأقصى . على اعتبار أن هذه كانت الركائز الجوهرية (على حد تعبير بيثن عن الشرق الأوسط سنة ١٩٤٨م) لوضع بريطانيا كقوة عظمى [كان إرنست بيثن فى ذلك الوقت سكرتير حزب العمل للسياسة الخارجية] .

وثمة نسخة ناعمة عطوفة من نظرية الشعب المختار - وهى أن قدر انجلترا أن تلقى «ضوءاً على الأمميين» ، وأن هذا الضياء كان أفضل ما يكون إذا عُمل فى الحال بدلاً من أن يُعمل على المدى الطويل - ما تزال سائدة بشكل عام . فقد كانت ما تزال نظرية حزب الهويج (المحافظين) . وقد افترضت ، مهما كان الذى حدث مؤخراً فى ألمانيا ، أن الاتجاه الطبيعى للحضارة الإنجليزية كان صوب التقدم . وبالتدرج ، بوصة فبوصة ، كانت المؤسسات البريطانية الطابع قد تأسست وبُنيت فى المستعمرات الأفريقية والآسيوية التى كانت ما تزال خاضعة لحكم لندن - مؤسسات مثل المدارس والكلليات ، والمحاكم والنظم القانونية ، والمجالس المحلية (وبعضها له قوة نيابية تشريعية ، وبعضها استشارى فقط) ، وفروع محلية للكنيسة المسيحية البريطانية الرئيسية ، وكانت اللغة الإنجليزية لها الأفضلية فى التعليم على اللغات المحلية .

والحقيقة أن نظرية الشعب المختار فى الاستعمار البريطانى ، التى ترجع مباشرة إلى زمن ويلبرفورس عند نهاية القرن الثامن عشر ، كانت تحتوى داخلها على بذور دمارها ؛ إذ إنه أجلاً أم عاجلاً كان لا بد أن يُرى «النور على الأمميين» وأن تتم الاستجابة له ، وكان لا بد للأمة المخلصة أن تقوم بفعل الخلاص . وبينما كانت فوائد الحضارة البريطانية تنتشر ويتم استيعابها بين المستعمرات ، كان لا بد من أن يكون هناك طلب للحقوق السياسية نتيجة لهذا . وكانت دروس ١٧٧٦م واضحة بما فيه الكفاية ، حتى ولو أخفق الأمريكيون فى إبرازها (وهو ما لم يفعلوه) .

وجاءت أهم الدروس من هذا النوع خلال ما يسمى «أزمة السويس» (التي كانت حرباً في الحقيقة)؛ ذلك أن بريطانيا، بمساعدة فرنسية وإسرائيلية، قد قررت إعادة احتلال قناة السويس التي كان الزعيم الوطني المصري جمال عبد الناصر قد أممها (أى انتزعها من الملاك الأجانب) سنة ١٩٥٦ م. وكانت هناك في الأمة كلمات ونستون تشرشل في فترة سابقة من الخمسينيات «شعور متنام بالحاجة إلى إعادة وضع بريطانيا في مكانها الصحيح، الذي يعتمل في قلوب الناس بعيداً عن صفوف أية منظمة سياسية»؛ إذ إن إنجلترا التي كانت قد شعرت بالثقة الوطنية في النفس تعود إلى المزاج الوطني في زمن التتويج سنة ١٩٥٣ م، لم تكن لتترك حاكماً أجنبياً تافهاً ينتصر عليها، حسب الوصف الذي أطلقه أنتوني إيدن خليفة تشرشل في رئاسة الوزارة على ناصر.

ومن الناحية العسكرية كان الأمر نوعاً قذراً من النجاح، ولكن أمريكا عارضت بقوة. وربما كان جوهر الإحساس الأمريكي شبيهاً بالشعور الليبرالي الذي عارض المشروع في بريطانيا: أن هذه كانت طريقة عفا عليها الزمن لا ينبغي لأية أمة أن تتصرف بها، وكانت المؤسسة البريطانية ما تزال على عقليتها الاستعمارية. بيد أن أمريكا، بسبب تاريخها، وعلى الرغم من تجاربها الخاصة في بناء الإمبراطورية، كانت لديها عداوة عميقة تجاه الاستعمار في صيغته الأوروبية القياسية وتعاطف غريزي تجاه أى شعب يحاول التخلص منه.

والواقع أن بعض بديهيّات الحكومة البريطانية كانت إمبريالية تماماً. فعلى سبيل الرد على التأميم الذي قام به ناصر، بذلت الحكومتان البريطانية والفرنسية ما في جهدهما لإيقاف المرور عبر القناة بسحب المرشدين البريطانيين والفرنسيين، والذين كان لا بد لكل سفينة أن يكون بها واحد منهم. ويعلق كوريللى بازنت: «كان اعتقادهم المتغطرس بأن هذا سوف يُظهر للعالم أن المصريين المتخلفين لن يمكنهم إدارة الشركة التي أمموها. وكان من دواعي الغم والكدر بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين أن قام المصريون ببساطة بتوظيف مرشدين من جنسيات أخرى؛ لكي يحلوا محل مرشديهم، وظلت البواخر التجارية وناقلات البترول تبحر كالمعتاد».

هكذا كان القرار قد اتخذ للاستيلاء على القناة مجدداً بالقوة فى خدعة مركبة للتدخل دفاعاً عن الأملاك الدولية ضد الإسرائيليين (الذين كان البريطانيون والفرنسيون يشجعونهم سرّاً لمهاجمة مصر؛ لكى تكون هناك ذريعة للعمل العسكرى)، وبمثل هذه المناورة افترضت بريطانيا أن بوسعها أن تتصرف مستقلة عن أمريكا، بيد أنها لم تستطع؛ إذ كان أحد آثار الحرب العالمية هو تحويل جزء كبير من احتياطى النقد البريطانى إلى ديون مملوكة للولايات المتحدة، وحتى بعد عشر سنوات، كان الاقتصاد البريطانى ما يزال بحاجة إلى دعم ومساندة. ولم يكن ممكناً تصحيح تدهور الجنيه الاسترلى فى أسواق النقد العالمية بجهد بريطانيا وحدها، كما أنها لم تكن تملك الاحتياطيات اللازمة لذلك. واعتمدت على المساعدة الأمريكية، والتي لم تكن وشيكة فى تلك المناسبة، وعلى نحو ما أوضح الرئيس دوايت أيزنهاور بطريقة هشة: «ما لم يكن هناك وقف لإطلاق النار، لن تكون هناك قروض» (كان يشير إلى طلب بريطانى بالسحب بضمان ميزانيتها العالمية المالية لكى يدعم أسواق العملة، وهو طلب اعترضت عليه أمريكا). وقد أعلن أسبابه فى خطاب مذاع أوضح فيه قناعته بأن ما وراء هذا النزاع هو النزعة الاستعمارية على الطراز القديم - وهى نزعة بريطانية فى المحل الأول. وقد اشتكى من أن الولايات المتحدة لم تُستشر حول النية بشن هجوم مسلح على مصر، وهو أمر لم يمثل صدمة كما قد يبدو، إذا ما أخذنا فى الحسبان أن الولايات المتحدة قد شنت الحرب على كوريا سنة ١٩٥٠م، دون أن تتشاور مع بريطانيا. وواصل حديثه:

«ومثلما هو حق واضح لأى من هذه الأمم فى اتخاذ مثل هذه القرارات والتصرفات، فمن حقنا كذلك - إذا ما كان تقديرنا على ذلك علينا - ألا نوافق. إننا نعتقد أن هذه الأعمال قد جرت خطأ؛ لأننا لا نقبل استخدام القوة كأداة حكيمة أو مناسبة لإقرارات النزاعات الدولية... إن التصرف الذى تم لا يمكن أن يتوافق مع مبادئ وأغراض الأمم المتحدة التى وافقنا جميعاً عليها. وفوق هذا، فإننا مجبرون على الشك فى أن اللجوء إلى القوة والحرب سوف يخدم لفترة طويلة المصالح الدائمة للدول المهاجمة».

كان الرئيس أيزنهاور رجلاً پراجماتياً، بيد أن أزمة السويس كشفت أنه كان مقتنعاً بعمق بالدور الأخلاقي الفريد لأمريكا في شئون العالم؛ إذ إن حليفاتها القديمة في الحرب العالمية الثانية التي حاربت إلى جانبها على أساس المساواة والتي قاد جنودها بنفسه في غزو نورماندى، لم تعد نداءً ولكنها الآن شريك أصغر. وكانت لديه الوسيلة لفرض إرادته - والآن معه الرب إلى جانبه. وفي ذلك الصيف كان قد أعلن «نحن نثق في الرب» لتكون الشعار الوطنى للولايات المتحدة.

وفى بريطانيا سنة ١٩٥٦م لم تكن كلمة «الاستعمار» كلمة قذرة. ولكن هجران أمريكا لأقرب حليف (كما بدا فى لندن) كان ضربة قاسية للهبة القومية. ويبدو أن الحقيقة هى أن أيزنهاور ووزارة الخارجية فى واشنطن قد أصبحا متضايقين بشكل متزايد من التظاهر البريطانى بالندية مع أمريكا، وهو ما كان يمثل ببساطة عقبة فى سبيل حرية أمريكا فى التصرف «من أجل حماية حرية العالم بأسره» (بحسب صياغة وزارة الخارجية).

وحدث أثناء تلك الفترة أن تحول التفكير البريطانى فى أمريكا من «الندية» مع أمريكا كقوة عالمية أخرى، إلى «العلاقة الخاصة» بين قوة صغرى وقوة عظمى. وبعد أزمة فى العلاقة سنة ١٩٥٦م وما تلاها من استقالة إيدن رئيس الوزراء، كان على خليفته، هارولد ماكميلان، أن يحاول إصلاح الأمور. وكانت استراتيجية بسيطة: أن يتفق مع أمريكا على أن أيام الاستعمار قد ولّت إلى غير رجعة.

وكانت مستعمرتان بريطانيتان قد حصلتا على الاستقلال بالفعل - هما غانا والملايو (ماليزيا) فى الشرق الأقصى - وكانت نيچيريا على الطريق، ولكن كانت هناك مشكلات خطيرة فى أماكن أخرى، ليس أقلها ما حدث حينما تصادمت مصالح المستوطنين البيض مع المطالبات النضالية المتزايدة للسياسيين الوطنيين الأفريقيين فى وسط وجنوب أفريقيا. وفى سنة ١٩٥٩م قدم الجنرال ديڭول حق تقرير المصير للجزائريين؛ مما جلب المخاطرة بنشوب حرب أهلية فى أراضى فرنسا ذاتها وفى ممتلكاتها الأفريقية.

ولهذا كانت هذه الأحداث إنذاراً للإمبراطورية البريطانية. وذهب ماكميلان فى

جولة إلى أفريقيا فى بداية سنة ١٩٦٠م، وهى التى انتهت بخطابه الشهير عن «رياح التغيير» فى برلمان جنوب أفريقيا. وكانت جولته فرصة ممتازة لمراقبة المدى الذى ذهب إليه البريطانيون الذين عينوا أنفسهم فى مهمة لتمدين أفريقيا، منذ وجود مفهومها فى أيام وليام ويلبرفورس وبعد ذلك فى أيام ديفيد ليفينجستون. وكانت دعوة ليفينجستون المتطوعين البيض للذهاب إلى أفريقيا وتجديد اقتصادها على حسب الخطوط الحديثة. وكان فى ذهنه أن ذلك هو الرد الحقيقى الوحيد على الرق. قد نتج عنها جمهرة كبيرة من المغتربين فى معظم أنحاء المستعمرات فى وسط وجنوب أفريقيا. وكانت بعض البلاد قد أحرزت تقدماً فى بناء طبقة سياسية، تضم جيلاً جديداً من الموظفين المدنيين والمحامين السود، وكانت بعض البلاد الأخرى متخلفة عن ذلك كثيراً. وقد طال الفقر عدداً قليلاً من البيض فى هذه العملية، وكانت هناك ثروة ورفاهية فى انتظار من يملكها فى المستعمرات.

وفى كل مكان رفرع عليه علم الاتحاد، كانت الكنائس البريطانية قد وزعت بعثاتها التبشيرية التى صارت مع الوقت أساس المدارس والكليات والمستشفيات. وعادة ما لم تكن كنيسة انجلترا حاضرة بذاتها، ولكن من خلال واحدة أو الأخرى من الهيئتين التبشيريتين الرئيسيتين، الجمعية الإرسالية الكنسية (CMS) Church Missionary Society التى كانت كنيسة سُفلى (أى إنجيلية)، والجمعية المتحدة لنشر الإنجيل (USPG) والتى كانت هى الكنيسة العليا (أى الأنجلو كاثوليكية)، وكان مقر كل منهما الرئيسى فى انجلترا. بيد أنهما لم تتنافسا بصفة عامة. وبدلاً من أن يكون لديهم نوعيات مختلفة لعضوية الهيئة الكنسية جنباً إلى جنب كما هو حادث فى الوطن الأم، تطورت الكنيسة الأنجليكانية فى كل جزء من القارة تحت راية واحدة فقط من هاتين الهيئتين. فالكنيسة الأنجليكانية فى كينيا، مثلاً، صارت تقريباً كنيسة إنجيلية (أى پروتستانتية) متسقة؛ لأنها كانت تحت إرسالية (CMS)، على حين كانت جنوب أفريقيا قد خضعت لإرسالية (USPG)، ولهذا كانت الإنجيلية هناك كنيسة عليا (أى أنجلو كاثوليكية). ويفسر هذا جزئياً السبب فى أن نضال السود من أجل الحرية فى جنوب أفريقيا، على

الرغم من أنه كان يلقي دعمًا قويًا من الكنائس الناطقة بالإنجليزية، لم يكن مصحوبًا بالتنميط على أساس الكتاب المقدس حول «موسى يقود الشعب المختار للخروج من نير عبودية فرعون» (وكان يمكن أن يكون موسى هو نيلسون مانديلا، على ما يرجح)، كما سيكون عليه الحال بلا شك إذا ما كان الوجود المسيحي السائد أكثر پروتستانتية.

وفي معظم المستعمرات كانت هناك أيضًا كنيسة اسكتلندا الأصغر والبعثات الميثودية والمعمودية، وفي كل الكنائس وجد الأنجليكانيون وغيرهم من تنوعات البروتستانت أنفسهم أقل عددًا من الكاثوليك الرومان، الذين تركزت جهودهم الرئيسية على التعليم. ولذلك كانت الرؤية الباكرا للإرساليات الرائدة قد تحققت إلى درجة كبيرة عندما كانت أفريقيا تدريجيًا تصطبغ بالصبغة الغربية والمسيحية. وفي معظم الحالات كانت الحماية التي وفرتها السلطة الاستعمارية الأوروبية عملاً مهمًا، وفي الوقت نفسه، على نحو ما ظهر أنه النموذج العالمي مع الاستعمار الأوروبي، كان لا بد من أن تكون مثالية المهندسين والمحامين والأطباء ورجال الكنيسة البيض تعويضًا عن أنانية وغطرسة بعض المستوطنين البيض والمزارعين البيض واستغلال الموارد المحلية لصالح المطاعم التعدينية الغربية. وكانت المواقف المعبرة عن التفوق العنصري واسعة الانتشار، التي اختلطت بالتعالى الإنجليزي (والذى تقوى، دون شك، عندما كان أبناء الأسر البيضاء الغنية يرسلون إلى المدارس العامة الإنجليزية لاستكمال تعليمهم).

وخلال رحلة قام ماكميلان إلى نيجيريا، فى بداية جولته، قام بإجراء محادثات مع السير جيمس روبرتسون، الحاكم العام البريطانى، وهى محادثات غالبًا ما كانت تتم الإشارة إليها فى فترة لاحقة، وهى دالة جدًا، سواء عن حالة أفريقيا فى ذلك الوقت، أو من حيث ما كشفت عن المواقف الأبوية والتسلطية للطبقة الحاكمة الإنجليزية. وعلى حد تعبيره بكلماته:

بعد حضور اجتماع ما لما يسمى الوزارة أو المجلس، قلت: «هل هؤلاء الناس يصلحون للحكم الذاتى؟» وقال: «لا، طبعًا»، وقلت: «متى سيكونون جاهزين؟»

وقال: «بعد عشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة»، فقلت حينئذ: «ماذا توصيني بعمله؟» قال: «أوصيك أن تعطيهم الحكم فى الحال».

وتعبيرات مثل «ما يسمى» و«هؤلاء الناس» و«يصلحون لـ» وصيغة النفى المؤكدة «لا، طبعاً، لا يصلحون»، كلها مؤشر على التفوق الإنجليزى وازدراء الأفريقيين المحليين الذى كان علامة دافعة لأسلوب ماكميلان، وربما لأسلوب الحاكم العام أيضاً، وهى أيضاً دليل على استمرار النزعة التسلطية الاستعمارية، أى أن البيض كانوا هم البالغين الناضجين، أما الأفريقيون فهم الأطفال. ومع هذا فإنها تكشف عن أن الإحساس بالغرض الأخلاقى وراء الاستعمار البريطانى كان ما يزال حياً بدرجة كبيرة للغاية. وقد قال روبرتسون إن «على البريطانيين مسئوليات»، وهو يفسر إجابته غير المتوقعة بالقول بأنه إذا تأجل الحكم الذاتى، فإن الزعماء الأفارقة سوف يملكون العقد أو العقدين التالىين وهم يحاربون من أجل الاستقلال، وليس فى تعلم فن الحكم، و«سيكون على أن أضعهم جميعاً فى السجن» وهو ما تصور أنه كان سيؤدى إلى عدم تحقيق أى خير لهم. ولكن إسداء الخير للأفارقة كان هو السبب الرئيسى لوجود البريطانيين هناك.

والمهمة الضمنية للبريطانيين لتمدين العالم والتى كانت قائمة عند بداية الإمبراطورية البريطانية الثانية كانت ما تزال تؤخذ أمراً مسلماً عند نهاية هذه الإمبراطورية. وكانت تلك مهمة أمر بها الرب، وهو ما كان عدد قليل من جيل ماكميلان يشك فيه.

وفى جنوب أفريقيا قابل مهمة مختلفة جداً، أمر بها الرب، وأخبره بها رئيس الوزراء فيرويرد. فبالنسبة له، وحسبما لاحظ ماكميلان فيما بعد، كان «الفصل العنصرى أكثر من فلسفة سياسية، لقد كان ديانة، ديانة تقوم على أساس العهد القديم أكثر من العهد الجديد... وكان يمتلك كل قوة الإقناع التى يتمتع بها الزعماء الكاليفينيون الكبار فى كنيستنا الاسكتلندية».

كان قلب حديثه هو النتيجة الختامية التى توصل إليها، والتى قال إنها كانت قائمة على أساس تجربته فى جولته، ولكن لا بد أنها كانت فى ذهنه عندما انطلق

فى هذه الجولة، وهى أن «رياح التغيير تهب فى أرجاء هذه القارة، وسواء أعجبنا هذا أم لا، فإن هذا النمو فى الوعى القومى حقيقة سياسية. يجب علينا جميعاً أن نتقبلها كحقيقة، ولا بد أن تضعها سياساتنا الوطنية فى حسابنا». وكانت رسالته إلى جنوب أفريقيا هى أنه بينما كانت الحضارة الإنجليزية، مثل حضارتهم، قائمة على أساس المسيحية «فإن ذلك ينبغى فى رأينا أن يتضمن الفرصة لأن يكون لنا نصيب متزايد فى السلطة السياسية والمسئولية السياسية، مجتمع تكون فيه الجدارة الفردية، والجدارة الفردية وحدها، هى المعيار لتقدم أى رجل، سواء كان سياسياً أو اقتصادياً...».

ولهذا مضت بريطانيا بسياسة منتظمة فى تخليص نفسها سلمياً من مستعمراتها فى أفريقيا، ولكن مع التخلّى فقط عن تلك المستعمرات التى لا تخدم غرضاً استراتيجياً فى غيرها من الأماكن. وكان الاختلاف الوحيد فى الممارسة هو اضطرارها إلى الخروج من مواقع مفيدة، مثل قبرص وعدن، بالقوة. ولكن خطبة «رياح التغيير» التى ألقاها ماكميلان سنة ١٩٦٠م كانت هى اللحظة الحاسمة التى عندها تخلّى البريطانيون عن فكرة الإمبراطورية، وبدلاً من ذلك تحولوا إلى تطوير فكرة الارتباط الطوعى للدول المستقلة فى الكومنولث (الكومنولث البريطانى فى البداية)، ولكن لم تلبث الصفة أن أسقطت.

وقد تسارعت رحلته تجاه هذا الوضع؛ بسبب حوادث مثل ما يسمى «مذبحة الهولا» سنة ١٩٥٩م، على اسم معسكر اعتقال فى كينيا لجماعة ماو-ماو الإرهابية. فبعد حادث شغب تم ضرب أحد عشر منهم حتى الموت. وكان رد فعل الإدارة الاستعمارية البيضاء مشابهاً إلى حد كبير لرد فعل البريطانيين فى الهند بعد «مذبحة أرميستار» سنة ١٩١٩م، مع تظاهر يتسم بالتحدى بأنه لم يحدث شئ ذو بال. ومع هذا فإنه أدى إلى انشقاق الوزارة البريطانية فى سنة الانتخابات، وهو ما كان يمكن أن يكون تحولاً خطيراً فى الأحداث بالنسبة لماكميلان. ولكن بينما كان رأى البريطانى فى بريطانيا غاضباً، فإن العامة فى غالبهم لم يكونوا على هذا القدر من الاستياء. فقد كان رأى العام فى بريطانيا عنصرياً بشكل صريح، وكان ثمة «حاجز

لوني» يتم ممارسته على نطاق واسع في الإسكان وفي التوظيف. وكانت لافتات «لا سود ولا أيرلنديين» لافتات شائعة الانتشار في مداخل المنازل العامة وفي كل مكان غيرها.

وإذ لم يكن ماكميلان يريد أن يزجج الشعور البريطاني العام بالرضى عن النفس، فقد أبدى ملاحظة شهيرة «أنه لم يحدث أبدًا أن كانت الأمور عندهم طيبة بهذا القدر». وصوّت البريطانيون للحفاظ على الأمور بهذه الطريقة، وقد شهدت هذه السنة أيضًا أعلى مستوى من الحضور في الصلاة الأسبوعية بكنيسة انجلترا منذ نهاية الحرب، فما كان خيرًا بالنسبة للجسد الوطني كان واضحًا أنه كان خيرًا أيضًا للروح الوطنية.

وفي الفترة ما بين التتويج في سنة ١٩٥٣م وقول ماكميلان: «لم يحدث أبدًا أن كانت الأمور عندهم بهذا القدر»، في انتخابات سنة ١٩٥٩م كان المزاج الديني الوطني - على الأقل - معجبًا بنفسه. إذ لم يكن مسموحًا سوى للقليل بأن يتحدى الفروض في انجلترا الأنجليكانية والتي كان التتويج نفسه قد أوضحها، حسبما ظهر من حادث طريف وقع سنة ١٩٥٥م؛ إذ إن «ماجريت نايت»، وهي أخصائية علم نفس من جامعة أبردين، طُلب منها أن تقدم حديثين إذاعيين تحت عنوان عام هو «الأخلاق بدون الدين»، وأرادت أن تعبر عن عدم موافقتها على منشور وزعته وزارة التعليم بأن «السياق الطبيعي» للتعليم الأخلاقي للأطفال هو في مجرى التعاليم الدينية، وأن تقدم مشورتها للوالدين غير المؤمنين حول كيفية غرس المعايير الأخلاقية في الأطفال خارج مثل هذا الإطار. وقد وصفت فيما بعد المشكلة التي يواجهها مثل هذين الوالدين، اللذين يُحيط بهما «التلقين المنظم للدين» في المدارس ووسائل الإعلام الجماهيرية:

«إن الدعاية بالغة القوة لم تجعل منا أمة من المؤمنين، وإنما خلقت روادع قوية للتعبير عن عدم الإيمان. وفي بعض الحالات يكون التهديد ماليًا؛ فالمدرس، مثلاً، الذي يجاهر باللا أدبية يجد أن فرصه في الترقية مهددة. ولكن الأكثر حذقًا من الرادع المالي هو تأثير الاقتراح الجماهيري - هو الشعور الذي يُزرع بشكل

متواصل بأن «عدم القدرة على الإيمان» هو حالة تدعو للأسف ومحرجة قليلاً، ومن الأفضل عدم الإشارة إليها. وهكذا يشعر كثير من الشكاكين الأمتاء بأنهم يخجلون ويتسترون على شكوكهم، وفي جميع أنحاء البلاد يخلق الآباء المشوشون والقلقون صراعات مماثلة للجيل التالي بتعليم أطفالهم مذاهب لا يؤمنون هم أنفسهم بها».

بهذه الروح أدلت بحديثيها، وحدثت ضجة وطنية هائلة. وكما يحدث غالباً عندما تحدث الحالة التي اصطلح على تسميتها «الذعر الأخلاقي» في وسائل الإعلام وفي الرأي العام، بدأ الأمر ببطء. ففي البداية كان هناك تقرير قصير وموضوعي في إحدى الصحف «News Chronicle»، ثم بدأت الأمور في التورم. وقال العنوان الرئيسي لجريدة «Daily Express»: امرأة متخصصة في علم النفس تشن هجوماً واضحاً على تعليم الدين للأطفال، وجمعت جريدة «Daily Telegraph» تقريراً وصف حديثها بأنه «كتلة كبيرة من الدعاية الإلحادية»، ودعت إلى منع حديثها من الإذاعة ثانية. ثم نشرت جريدة «Sunday Graphic» عملية اغتيال - في الصفحة الأولى - ذات طبيعة عنيفة خارقة للعادة. فتحت عنوان رئيسي بالصفحة الأولى يعلو صورتها التي كتب فوقها: «السيدة نايت غير المقدسة The Unholy Mrs. Knight» أعلنت الصحيفة:

«لا تتركوا هذه المرأة تخدعكم. إنها تبدو - أليس كذلك - تماماً مثل الزوجات في البيوت؛ هادئة، مريحة، غير مؤذية. ولكن السيدة مارجريت نايت تمثل خطراً. إنها امرأة خطيرة، فلا تخطئوا بشأنها... لقد سمحت الإذاعة البريطانية (BBC) المضللة لواحدة متعصبة أن تصخب على موجات الإذاعة بحيث تضرب المسيحية بموس حلاقة وسلسلة دراجة [كما يفعل البلطجية في الحارات]. دعونا نكف عن الاستماع إلى المزيد من كلامها الفارغ وهرائها. ومن المقرر أن تدلى بحديث يوم الأربعاء القادم. ويجب أن تفرغه الإذاعة في الحوض».

ولا يمكن إنكار أن السيدة نايت استخدمت ذريعة الحديث عن التعليم الأخلاقي؛ لكي تشن هجوماً على المعتقدات المسيحية الأساسية، وهو ما فعلته

فى مصطلحات لا يمكن التصالح معها . وإذا كانت تتعامل مع الشكاكين ، فقد بدا أن هدفها هو أن تحولهم إلى ملحدين مؤكدين ، ولكن الأمر كان أيضاً فى توقيت غريب ، دعك من القول إنه توقيت أحق للجدل ، فلكى تعلم طفلاً أن الأخلاق تعتمد على المسيحية يولد خطراً أنه ربما يرفض المسيحية من أجل الشيوعية ، كما قالت فى حديثها . «وربما يقرر كذلك أن هذا كله كان مجرد ثروة فارغة مثل كلام الزوجات المسنات ، وهو الآن لا يعرف أين هو . وفى هذه المرحلة يمكن أن يكون عرضة للدعاية للشيوعية بأكبر درجة . . . وبدلاً من أن يكون هذا حماية ضد الشيوعية ، يمكن أن يساعد ربط الأخلاق بالدين على أن يسوق الناس إلى أحضانها» .

وفى البداية جاء رد فعل الكنيسة على منوال الصحافة ، وكان ساخطاً بنفس القدر ، ولم يكن هناك من هو أكثر سخطاً من كبير أساقفة كانتربورى الدكتور جيوفرى فيشر . ولكن حسبما اعترفت هى نفسها فيما بعد ، بدأت فضيلة التسامح الإنجليزية القديمة تظهر على السطح . وكان واحداً من أكثر التعليقات لصالحها جاء من جريدة «Church Of England News Paper» البطل الجسور للإنجيلية الأنجليكانية :

«إذا كانت العقيدة المسيحية لا تستطيع الإجابة على شخص مثل السيدة نايت بالإساءة الشخصية ولا تستطيع أن تجد إجابة مفحمة ، فإنها تستحق الفشل وسوف تختفى فى الحقيقة ، واقتراح أن الإذاعة البريطانية (BBC) أخطأت فى السماح للسيدة نايت بالإذاعة يستخدم فقط بأيدي نقاد المسيحية بما يعنى ضمناً أن الكنيسة منفعة خاصة لها قوة الرقابة . . . وأولئك الذى يشاطرون السيدة نايت شكوكها بشأن المسيحية ربما يفوقون فى عددهم أولئك الذين لا تساورهم الشكوك فى بريطانيا فى الوقت الحالى ، ومن بينهم عدد كبير من مواطنينا الذين يتمتعون بقدر عال من الاحترام والمسئولية» .

والرسالة المهيمنة من العدد الكبير من الخطابات الموافقة التى تلقتها كان مؤداها أنها قد أدخلت هواء جديداً فى الثقافة الوطنية لأول مرة ، وبشكل أساسى

قال الناس إنهم شعروا بأنهم تحرروا، وكان بعضهم متشياً بالفرح . وثمة إشارة أخرى إلى المستقبل جاءت من خطابات المدرسين ، لا سيما الرؤساء الذين كان عليهم تنظيم اجتماعات دينية وأولئك الذين كان عليهم تدريس التعاليم الدينية (كما كان مطلوباً من المدارس أن تفعل بحكم القانون) سواء كانوا يؤمنون بهذا أم لا . وكان الدين في خمسينيات القرن العشرين ، ذروة فترة ما بعد الحرب لـ «المسيحية الرسمية» في إنجلترا، يتضمن أيضاً بشكل واضح بذور دماره . وربما كان إدراك مدى هشاشة الدين هو الذى زاد من الهيستيريا من جانب الصحافة . ولكن الكنيسة ، مثل الملكية ، كانت حتى ذلك الحين قادرة على أن تعتمد على مناخ من التبجيل غير الناقد ، وكان نخسها بالنقد الصريح يعنى كسر أحد المحرمات الوطنية .

وسرعان ما تحول الانتباه إلى خطط زواج الأميرة مارجريت ، التى كانت قد سببت لأختها الملكة ، بل وبدرجة أكبر لكبير أساقفة كانتربرى ، نذيراً عنيماً بالتهديد بالزواج من رجل مُطلّق ، الكابتن پيتر تاونسند . ولم يكلمها كبير الأساقفة فى العدول عن ذلك فقط ، بل إنه أيضاً رتب لاجتماع الكنيسة ، ثم لهيئة كنيسة إنجلترا النظامية ؛ لكى يمرر مرسوم استدعاء سنة ١٩٥٧م يحرم زواج المطلّقين فى الكنيسة . وقد أعاد هذا تأكيد قرارات سابقة - خاصة قرار الكنيسة الذى تم تمريره بعد تنازل إدوارد الثامن سنة ١٩٣٦م - بإعلان أن : «فى سبيل الحفاظ على مبدأ الالتزام مدى الحياة الذى يدخل ضمن كل زواج عقد بصورة مشروعة وتم التعبير عنه فى أوضح عبارة فى طقوس الزواج الكنسية ، فإن الكنيسة لا يجب أن تسمح باستخدام تلك الخدمة الكنسية فى حالة أى شخص كان له شريك فى الزواج ما يزال على قيد الحياة» . ولم يكن هناك شك فى أن كبير الأساقفة فيشر كان يريد أن يقطع اتجاهاً اجتماعياً متنامياً يحبذ قوانين الطلاق الأكثر تحرراً . وفى ذلك الوقت ، اعتبرت الدولة الزواج ، شأنًا خاصاً بالكنيسة ، ولم تكن لتأتى أية حركة دون موافقة الكنيسة . كان فيشر يوضح أن مثل هذه الموافقة لن تأتى .

وحدث مثل هذا الاستحسان الشديد مرة أخرى سنة ١٩٦٠م ، عندما قررت دار

پنجوين للنشر، وعلى الرغم من الادعاءات القضائية حديثة العهد التى نتج عنها حكم بالسجن على بائع كتب، أن تنشر طبعة لم تخضع للرقابة من رواية «عشيق الليدى شاترلى - Lady Chatterleys Lover». كانت الرواية سيئة السمعة التى كتبها د. هـ. لورنس تتضمن، فضلاً عن وصفها لممارسة الجنس، كلمة دارجة ذات حروف أربعة (هى كلمة Fuck التى وردت ما لا يقل عن ثلاثين مرة فى صفحات الرواية) وهى أكبر إساءة.

وقد أيدت المؤسسة، بما فيها كبير أساقفة انجلترا، الادعاء بقوة، كما أن سير ريجينالد ماننجهام - بولر، المحامى العام، منح تشجيعه الأخلاقى والمعنوى من خلف الكواليس. وفى فقرة تم إيرادها كثيراً ضده فيما بعد، قام المدعى العام ميرثين جريفيث چونز بتوجيه كلامه إلى المحلفين «سألوا أنفسكم هذا السؤال: هل توافقون على أن أبناءكم الشباب، وبناتكم الشابات - لأن البنات يمكن أن تقرأ مثل الأولاد تماماً - يقرأون هذا الكتاب؟ هل هو كتاب يمكنكم اقتناؤه فى المنزل؟ هل هو كتاب تريد لزوجتك أو خادمك أن تقرأه؟

وقد سُمح للدفاع باستدعاء خبراء أدبيين ودينيين؛ لكى يبينوا أن فى الكتاب أوجه جدارة تفوق البذاءة الواضحة، وإن كانت سطحية، وبرآه المحلفون بالإجماع. وشكا كبير الأساقفة فيشر من أن الادعاء لم يكن صلباً بما فيه الكفاية وكان عليه أن يقارع «أستاذًا بأستاذ وأسقفًا بأسقف» فى استدعاء الخبراء للشهادة. والسبب فى أن حذف الكلمة التى تبدأ بحرف «F» من مفردات اللغة الإنجليزية كان يحظى بهذه الأولوية القصوى بالنسبة لكنيسة انجلترا، يمكن تفسيره فقط إذا ما كانت الكنيسة المؤسسة تشعر بأنها مسئولة عن مجمل النعمة الأخلاقية فى البلاد، وليست فقط مسئولة عن المعتقدات الدينية لأعضائها. والحقيقة أن عقلية فيشر السهلة والطبيعية كانت تجرى وفق هذه الخطوط بالضبط؛ إذ كانت الكنيسة والدولة هما الجانبين الروحى والزمنى لنفس الكيان الوطنى الإنجليزى (وكلمة «روحى» فى هذا السياق كانت تعنى «أخلاقياً» إلى حد كبير).

كانت محاكمة رواية «عشيق الليدى شاترلى» علامة فارقة، ليس لمجرد أنها

جرت في سنة ١٩٦٠م الرمزية - بداية ثورة الستينيات في الأسلوب والسلوك التي أزعجت الكثير من المحرمات، التي أضفت على سنوات ما بعد الحرب مثل هذه الشخصية الخائفة.

وكان سيبدو كما لو أن شخصية بريطانيا كأمة مسيحية قد بدأت تتعثر. وكانت الصدمة الثانية للنظام الأنجليكاني هي نشر كتاب «Honest To God» سنة ١٩٦٣م الذي كتبه أسقف وولويتسن، الدكتور جون روبنسون. فقد كان قد قدم الدليل للدفاع في محاكمة رواية «عشيق اللیدی شاترلی»، وبدا الآن وكأنه ينشر الشكوك حول حقيقة المسيحية. وثمة ملخص متقدم في جريدة «The Observer» أعد المشهد بعنوان رئيسي: «أسقف يقول إن الرب هناك في الأعلى أو هناك في الخارج يجب أن يذهب».

كان فيشر في ذلك الحين قد تقاعد من كاتربوري، ولكن خليفته ميخائيل رامزي، لم يكن أقل حرصاً على دخول الشجار بالاستنكار والإدانة. وقال إنه «حزن بشكل خاص من جراء المنهج الذي اختاره الأسقف لطرح أفكاره على العامة» وهو «ما سبب إثارة العامة وسبب ضرراً كبيراً. وكثير منا ممن قرأوا المقالة ونداءاتها ربما لم تكن لديهم الفرصة أو العقول اللازمة لقراءة الكتاب الذي تشير إليه». وكان كتاب روبنسون مسحاً لبعض اللاهوت البروتستانتي المتحرر المكتوب باللغة الألمانية بأقلام باحثين من أمثال رودلف بولتمان، وبول تلليخ، وديتريخ بونهوفر (الذين أعدمهم النازي).

فقد انطلقوا، وكذلك فعل هو، لتحديث ما رأوا أنه مفاهيم خاطئة بدائية وطفولية عن المسيحية شائعة بين العامة. ومن الواضح أن رامزي كان يخشى من أنه بدلاً من تحويل هذه الأفكار إلى شيء أكثر عقلانية، وبالتالي أكثر قدرة على الوقوف بوجه روح الشك السائدة في ذلك العصر، فإن الناس سوف يستنتجون ببساطة أن المسيحية «ليست ديانة حقة بالمرة». ومثل هذه التأملات كان من الأفضل أن تنحصر في نطاق مجالس العموم الراقية؛ حيث تعرف أفضل العقول كيف تتعامل معها. وكانت تلك مقاربة لا تختلف كثيراً

عن خط الادّعاء فى محاكمة رواية «عشيق اللىدى شترلى»: «هل هذا كتاب تود أن تقرأه زوجتك أو خدمك؟» كان كبير الأساقفة رامزى محققاً فى جانب واحد؛ إذ كانت بعض الأفكار التى طُرحت فى كتاب روبنسون الذى لم يكن مكتوباً بصورة جيدة، مجردة بشكل يربك العقل، وأظهرت كافة دلائل أنها قد ترجمت حرفياً وبصورة خرقاء عن الكلمات الألمانية المركبة متعددة المقاطع.

ومن الناحية الفلسفية كانت البروتستانتية الليبرالية تبدو وكأنها تتلمس طريقها عائدة إلى نوع ما من الغيبىات، بعد أن كانت قد أدارت ظهرها لتلك المدرسة فى اللاهوت فى زمن الإصلاح الدينى. وفى داخل الآفاق الفكرية للمحررين الصغار فى جرائد التابلويد، ظهر روبنسون وكأنه يقول: إن الرب غير موجود وأن يسوع ليس ابنه. وإذا كان ذلك هو ما سُمع يقوله، فإن قادة كنيسة انجلترا شعروا أن من واجبهم أن يوقفوه. ولا شك فى أن ما جعل المشاجرة صاخبة هو حقيقة أن هذا بدا وكأنه هجوم على ديانة المؤسسة الحاكمة، من الملكة إلى أصغر موظف، ومن ثم كان من الناحية السياسية والاجتماعية مخرباً وهداماً بقدر ما كان كذلك من الناحية الدينية. وإذا كان ما يزال هناك اعتقاد قوى باق فى أن انجلترا هى «الشعب المختار»، فإن أى اقتراح إذن بأنه ليس هناك رب، أو على الأقل لا يوجد رب مثل ذلك الذى تتطلبه نظرية الشعب المختار، سيكون تهديداً خطيراً للهوية الوطنية، وكان رد فعل المؤسسة بالتالى يثبت هذه النقطة. ومن المثير للسخرية أن قصد روبنسون الحقيقى لم يكن إضعاف الإيمان الدينى وإنما تقويته؛ إذ إنه شعر أن المسيحية لم تكن تُقدّم بطريقة يمكن أن يستجيب لها الأذكىاء من الناس. إذ كان يشارك ناقيديه فى رأى بأن المجتمع السليم يحتاج إلى المسيحية لكى تجعله يعمل.

وقد أرسى كتاب «Honest To God» بوضوح مدى ما كان عليه معظم أعضاء الكنيسة من جهل باللاهوت؛ إذ إن هذه المسائل، وليس أقلها رفض المعجزات وغيرها من العناصر الغيبية فى الدين، كانت مطروحة فى مجال الاهتمام العام منذ زمن جورج إليوت على الأقل، إذا لم تكن مطروحة منذ زمن الربانيين «Deists».

ومن ثم فإن ارتباك العامة منذ ذلك الحين كان ينبغى أن يكون علامة تحذير على نقص العمق فى الاعتقاد الدينى الإنجليزى العادى، والذى كان موجوداً حتى فى قلب أعضاء الكنيسة. ومن الواضح أن الغالبية العظمى من الكبار كانت لديهم أفكار عن المسيحية لم تتقدم منذ أيام المدرسة الابتدائية، وقد وضع هذا علامة استفهام ضخمة ضد استثمار الكنيسة فى التعليم الدينى، فقد كانوا قادرين على أن يأخذوا أفكار روينسون، دون أن يوافقوا عليها بالضرورة، لصالحهم، بدلاً من أن يحولوها إلى فضيحة. لقد تم إرسال هذه الإشارة، لكن أحداً لم يتبها إليها. والجهل الدينى بين مرتادى الكنيسة العاديين قد خلق إمكانية التعرض للضغط الثقافى وأنماطاً فكرية، إذا لم تتم معالجتها، سيكون لها نتائج وخيمة فى العقود القادمة.

وتشارك هذه القصص فى شىء واحد؛ ذلك أنها أوضحت كيف أن القوى التى يراد لها أن تتحكم فى الكيفية التى يتصرف بها الناس ويفكرون، مهتمة بالدرجة الأولى بالزواج والعلاقات الجنسية، ويأتى اهتمامها بالعقيدة الدينية فى المرتبة الثانية. لقد كانت نظرية تساقط بطيء عن الدين والأخلاق، كانت بها أصداء قوية من الافتراض الذى ساد فى القرن السادس عشر بأنه عندما يحبذ الملك الطلاق، فعلى كل من عداه أن يحبذ الطلاق، وعندما يتغير دين الملك، فعلى كل واحد سواه أن يغير دينه أيضاً.

لقد شهدت الفترة منذ خمسينيات القرن العشرين صعوداً تدريجياً للأفكار المعارضة، أى أن الناس العاديين كانت تزداد مقاومتهم لأن تكون معتقداتهم ومستوياتهم الأخلاقية محددة لهم من أولئك الذين فوقهم فى السلم الاجتماعى والسياسى. كان هذا - جزئياً - رفضاً للطبقة الاجتماعية والمفهوم الفيكتوري القديم عن «التنشئة»، وعدم ترحيب بالاعتراف بعد ذلك بأن أولئك الأعلى فى المنظومة الاجتماعية أفضل على نحو ما أخلاقياً من أولئك الذين فى الطبقات الأدنى، كما كان - فى الحقيقة - رفضاً حتى للتفكير فى لغة الطبقات «الأدنى» و«الأعلى». بيد أنه كان أيضاً - جزئياً - رفضاً لمكانة انجلترا كشعب مختار، وكل ما كان مسلماً به نتيجة لتلك الفكرة على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون. وفى الظاهر، كانت الفكرة قد

اختفت منذ زمن طويل تحت السطح . أما من الناحية الضمنية فإنها استمرت فى المساعدة على تشكيل مفهوم الشعب الإنجليزى عن مكانهم الخاص الصحيح فى العالم حتى اليوم الحالى . ولكنها كانت تتضاءل على الدوام بمرور السنين ، وهذا الاضمحلال فى فكرة الاختيار يطرح مشكلات ضخمة حول هوية الأمة الإنجليزية ومصيرها . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فما هو ؟ إذ إن كونها «أفضل أصدقاء أمريكا» لا يكفى .

ربما كانت تلك غلطة هارولد ماكميلان . فبعد أزمة السويس ، رأى بوضوح إلى أين انتقل رداء الاختيار . وعلى الرغم من أن العبارة كانت موجودة من قبل فإن إسهامه فى مستقبل البريطانيين على المدى البعيد تمثل فى رفع مصطلح «العلاقة الخاصة» تقريباً إلى مستوى التعريف الوطنى البديل . وإذا لم يكن بمقدور بريطانيا أن تكون أقوى قوة فى العالم ، فإنها يمكن على الأقل أن تكون أقرب حلفائها . وما تزال أمريكا تبدو فى مظهر الشعب المختار ، وتؤمن فى قرارة نفسها أنها كذلك ، حتى ولو أن المفهوم عادة ما يتوارى فى ظل شعارات عاطفية مثل «بلاد الرب» أو التعبيرات الفكرية الرقيقة مثل «الاستثنائية الأمريكية» . كان هناك (وما يزال) فريق من السياسيين الأمريكيين الذين يمثلون التيار العام لا يرون أبداً أى سبب للشك فى أعمال أمتهم التى يربوها الرب ، أو للتساؤل حول الرؤية القائلة بأن الأمة لها «قدرها الواضح» فى جعل بقية العالم مثل أمريكا بقدر الإمكان ، كما أنهم لا يتساءلون عن أن العناية الإلهية هى التى تحركهم إلى الأمام .

وربط هذه العقيدة فى أمريكا بالمسيحية كان أوضح بكثير فى الجانب الجمهورى ، على الرغم من أن بعض الديمقراطيين مثل الرئيس جيمى كارتر يشاطرونهم ذلك . ومجموعات المهاجرين الذين وصلوا منذ الحرب الأهلية ، والذين كانت لهم خلفيات غير الأنجلوسكسون ، وديانات أخرى غير البروتستانتية ، اكتشفوا أن الارتباط بهذه الأيديولوجية يختلط بالولاء للعلم . وكانوا شغوفين بأن يجتازوا الاختيار . وهكذا فإن التدفق اليهودى الكبير أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، اعترف بسرعة بموضوع الشعب المختار بأنه يشبه موضوعهم ، وشعروا أنهم فى وطنهم تماماً لهذا السبب .

وكما رأينا فى ثنايا هذا الكتاب، فإن السياسيين الأمريكيين المعاصرين، ما يزالون لا يخرجون من الكلام بهذه المصطلحات. وقد اقتبسنا عن الرئيس ريجان وجورج بوش الابن هذه النزعة، كما اقتبسنا أيضاً عن العمدة چويليانى فى نيويورك. وكنا نستطيع أيضاً أن نقبس عن وزير العدل فى إدارة بوش، چون أشكروفت، وزعيم الأغلبية فى الكونجرس هويب توم دبلاى، أو غيرهما كثير. فعلى اليسار، فإن الإيمان بالمصير الأخلاقى الفريد لأمريكا ليس أقل رسوخاً، على الرغم من أن التعبير عنه لا يتم كثيراً فى مصطلحات دينية. وهو يتجلى، مثلاً، فى عدم ترحيب اليسار، وهو أمر يميز اليسار واليمين الأمريكى على السواء، بالاهتمام بالانتقادات الخارجية؛ لأنهم يعتقدون أن بقية العالم تمثل الماضى على حين تمثل أمريكا المستقبل ؛ ومن ثم أن العالم الجديد ليس لديه شىء يتعلمه من العالم القديم.



(١٠)

أوسع وأكثر اتساعاً

يا أرض الأمل والمجد يا أم الحرية
كيف يمكن أن نبجلك ، نحن الذين ولدنا
سوف تتسع حدودك أكثر فأكثر
فالرب الذى جعلك عظيمة سوف يجعلك أكثر عظمة (*)

إن مثال الشعب المختار ليس مجرد تعبير مجازى ؛ إذ إنه كان يصف كيف كان الناس يتصرفون فى الماضى ، ولكنه أيضاً يوصى بكيفية ما يجب أن يكون عليه تصرفهم فى المستقبل . وقصيدة «أرض الأمل والمجد» توضح هذا المثال فى أدائه . فقد كانت القصيدة مكتوبة لتكون نشيداً وطنياً لـ«انجلترا» ، ولا بد أنها كانت ستبدو مناسبة مثل - وربما أكثر فى أيامنا هذه - نشيد وطنى للولايات المتحدة الأمريكية ؛ إذ إن تاريخ انجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون ، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون ، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة الهادية القوية . ولم يكن مصدرها البروتستانتية وحدها ، ولكن الوطنية البروتستانتية ، والرغبة فى تعريف مجتمع وطنى بأنه جاء إلى الوجود ؛ لأن الرب أراد له أن يفعل ذلك ؛ لأنه كان له غرض لهذا المجتمع . وإذا كان البروتستانت قد رفضوا سلطة الكنيسة فى أمور الدين ، فإنهم استقوا تعاليمهم الدينية من الاتجاه

(*) كلمات إيه . سى . بنسون .

الآخر الوحيد المتاح أمامهم، صفحات النصوص المقدسة. وفيها وجدوا تاريخ الإسرائيليين القدماء الذين صاروا أمة مقدسة بإرشاد الرب، وعدّلوا تلك القصة بحيث تناسبهم. هكذا فعلت أول دولة وطنية مستقلة تمامًا في التاريخ الحديث، وهي مملكة انجلترا تحت حكم هنري الثامن سنة ١٥٣٥م.

وعلى مدى زمن طويل كان هذا الشكل من الوطنية البروتستانتية يُؤخذ على أنه شيء ليس أقل من المسيحية نفسها. إلا أنه مع نهاية القرن العشرين كان معظم المتحدثين باسم التيار الرئيسي في المسيحية البروتستانتية في كل من البلدين، قد توصلوا إلى اعتبار الوطنية البروتستانتية - كما وصفناها - انحرافًا عن نقاء الحقيقة المسيحية. وبقدر ما كان هناك أي شيء على كوكب الأرض يحظى بالاعتراف بأنه «الجيل المختار والقساوسة الملكيون، والأمة المقدسة، وشعب مخصوص» حسبما في رسالة بطرس الأولى، فإنهم كانوا سيقولون: إنها تلك الكتلة الخفية عديمة الشكل من المؤمنين المسيحيين من جميع الجنسيات والمذاهب التي انضمت لبعضها البعض. ولكن تلك نظرة حديثة نسبيًا يرجع تاريخها بقدر كبير إلى تلك الفترة التي طورت المسيحية البروتستانتية فيها بناءات عالمية مثل مجلس الكنائس العالمي (الذي تأسس سنة ١٩٤٨م)، والطائفة الأنجليكانية (كان أول مؤتمر في لامبث قد عُقد سنة ١٨٦٧م). وقبل ظهورهما، كان السائد عمومًا أن على كل طائفة بروتستانتية أن تكون لها جذورها في بلادها. وكان هذا أحد الموضوعات التي ميزت البروتستانتية عن الكاثوليكية.

ويتضح من التاريخ أن الأفكار الدينية عمومًا ثابتة وأن تحولها لا يتم سوى بصورة بطيئة. فهي تتصرف مثل تيارات المحيط العميقة الخفية التي تنقل ملايين الأطنان من الماء إلى مسافات هائلة، تصل في بعض الأحيان إلى نصف كوكب الأرض، ولا تصدر عنها سوى إشارة صغيرة إلى وجودها عند السطح، إلا أنها تسيطر على المناخ، كما أن الاضطراب الدائم في نموذج تدفقها قد يغير مصير قارات بأسرها ويغيّر الظروف المعيشية للأمم بأكملها. فما هو مرأى على السطح هو الموجات والانكسارات الصغيرة التي ترجع إلى حد كبير لتأثير الرياح

والطقس، ولكنها قد تعطى انطباعاً مضللاً بما يحدث فى الأعماق البعيدة. وهذا تعبير مجازى مفيد بالنسبة للأفكار الدينية، ومثال الشعب المختار فى الوطنية البروتستانتية يمكن اعتباره أحد التيارات فى أعماق المحيط، فربما لا تكون مرئية عند السطح. وحتى العواصف العنيفة قد لا تؤدى إلى اضطراب هذه التيارات، ولكن يحدث أحياناً، ولأسباب غامضة، أن تتغير هى بنفسها. ويصدق هذا أيضاً على الدين، فمن ذا الذى يعرف السبب فى أن الاسكتلنديين المحليين اعتنقوا حركة الإصلاح البروتستانتية، وأن الأيرلنديين الوطنيين لم يفعلوا؟

ومبدأ ماكس فيبر بأن القناعات الدينية الواضحة لجيل بعينه عادة ما تصير هى الفروض الضمنية غير المختبرة للجيل التالى، يعنى أن مثال الشعب المختار ربما يستمر فى تشكيل عادات الفكر ونماذج السلوك، بعد أن يكون الناس قد فقدوا اتصالهم بأصول هذه المؤثرات بزمان طويل. فهى، على حد تعبير المشاة البريطانيين فى الجبهة الغربية «هناك لأننا هناك لأننا هناك لأننا هناك .. إلخ». ونادراً ما يكون هناك انكسار حاد فى المعتقدات أو الممارسات الدينية بين جيل ما وجيل آخر يليه. وعلى العكس، فإن المعتقدات ستبقى غالباً مستمسكاً بها حتى بعد أن تكون قد فقدت أى علاقة لها بالواقع. وهناك مناطق من الريف الإنجليزي ما تزال تلج فى طلب قسيس ليقوم بالصلاة عندما يعانى شخص ما سكرات الموت؛ لأن «هذا ما تفعله» حتى على الرغم من أن كنيسة انجلترا ليست لديها طقوس خاصة بسرير الموت، ولكن هذا ما كانوا يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، وتستمر العادة حية. ويوم الجمعة يوم مزدحم فى محلات «السّمك والبَطاطس - Fish and Chip» فى انجلترا، حتى على الرغم من الامتناع الإجبارى عن أكل اللحم فى يوم الجمعة قد ألغته حركة الإصلاح الدينى. ومرة أخرى، كان هذا ما يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، ومرة أخرى تستمر العادة حية.

وربما كان الأمر يبدو واضحاً أن شرطاً ضرورياً للإيمان بأن الأمة التى يتسمى المرء لها هى الأمة المختارة، مثل اليهود فى العهد القديم، هو الإيمان بالرب، إذ لا يمكن أن يكون المرء مختاراً من الرب إذا لم يكن هناك رب. بيد أن هذا ليس

كذلك بالضرورة؛ إذ إن الكائنات البشرية ليست منطقية هكذا. فتوماس هكسلى، مثلاً، الذى كان واحداً من كبار العلماء فى القرن التاسع عشر وكان طوال حياته مدافعاً وداعية لنظريات تشارلز داروين، كان يؤمن بأنه مكلف بمهمة أن يستبدل المسيحية بالعلم، أو بتحديد أكثر أن يحرم المؤسسة الأنجليكانية من وضعها المختار فى المجتمع الإنجليزى ويستبدلها بكنيسة علمية، على حد تسميته. كانت نعمته إنجيلية، بل إن التلميذ البروتستانتي كان ضمن قضيته. وفى محاضرة ألقاها سنة ١٨٥٥م وبَّخ سامعيه (أو الجماعة المسيحية)؛ لأن «عصر الأوثان هذا» كما قال «ينصت إلى صوت الرب الحى يرعد من سيناء العلم، وينسى مباشرة كل ما سمعه؛ لكى يتمسح فى خرافاته الخاصة، ولكى يعبد العجل الذهبى للتقاليد، ولكى يصلى ويصوم حيث ينبغى أن يعمل ويطيع، وأن يضحي بأولاده للإله بعل اللاهوتى كما كان يحدث قديماً». وتمادى إلى درجة خلق المعادل لمدارس الأحد، حيث يغنى الأطفال الترانيم العلمية المعادلة للترانيم الدينية، وأسس متحف الفن الطبيعى فى لندن باعتباره المعادل العلمى للكاتدرائية. وصك مصطلح «اللاأدرية - Agnostic»، الذى يعنى الفرد الذى لا يدرى إذا ما كان هناك رب أم لا، ولكن إذا حكمنا بالأراء الدينية التى عبر عنها فعلاً، فقد كان ملحدًا حقًا. وملحد يؤمن بالقدر قد يبدو أمرًا متناقضًا، بيد أن ذلك لم يكن يزعجه. وفكرة أن انجلترا لها قدر أن تكون الأمة الرائدة علميًا فى الدنيا، وهى فكرة مستمدة من إسحاق نيوتن، كانت تبدو طبيعية تمامًا بالنسبة له. فَيُض لِكِلِيهِمَا أن يكون رئيس الجمعية الملكية، التى كان يسرها أن تعتبر نفسها المنظمة العلمية الأولى فى العالم.

كان نيوتن واحداً من أبطال مذهب التوحيد فى الألوهية الذى كان يؤمن بأن الكون، ربما يكون قد شُيّد كما لو كان على يد صانع ساعات إلهى - أداره ثم تركه يعمل. هذا الرجل العلمى الممتاز كان خبيراً بتصميم الساعة الإلهية، إلا أن تلك كانت طريقة واحدة فقط لقضاء أمسياته فى القرن السابع عشر، وكانت الأمور الأخرى التى تستحوذ عليه هى التأمل فى أسرار نبوءات الكتاب المقدس، بما فى

ذلك محاولة معرفة نهاية الزمان من فقرات غامضة فى سفر دانيال. وأى وقت زائد كان يقضيه فى التأمر وتدير المكائد إما لإقصاء الكاثوليك عن كامبريدج (وكان واحد منهم يرغب فى أن يسجل لدرجة البكالوريوس)، أو كيف يبعد دوق يورك عن عرش إنجلترا. وكان نيوتن مقتنعاً بأن قدره هو أن يقود إنجلترا لى تصبح الأمة الأولى فى البحث العلمى، ومن ثم تكون الأمة الأولى فى حضارة العالم، وتنبأ بهذا المصير فى صفحات العهد القديم والعهد الجديد. كان شخصاً مختاراً فى وسط الشعب المختار، وكان على قناعة أيضاً بأن قدره الشخصى والوطنى سوف يلحق به الدمار إذا تسامحت إنجلترا مع الكاثوليكية.

وفى اتساق مع الرأى العلمى المحترم، رأى أن البابا مثل المسيح الدجال، وتاريخ العالم الذى كان يقبله شخصياً، والذى أبعده قليلاً عن رفاقه من البيوريتان، هو أن الفساد الكاثوليكى قد بدأ، على حد قوله، بإدانة البابوية للهرطقة الأريوسية (على اسم أريوس، منشق مسيحى من القرن الثالث). وسمى نفسه أريوسياً ومن ثم لم يقبل ألوهية المسيح، والواقع أنه لهذا السبب كان عليه أن يحصل على إعفاء ملكى من القسم قبل أن يتولى كرسى الأستاذية فى كامبريدج. كان رجل القدر هذا، على مدى ثلاثمائة سنة فى إنجلترا وأمريكا، النموذج الراسخ للعالم السوبر (كان توماس چيفرسون، الموحد الشكاك، وثالث رئيس لأمريكا، متأثراً بكتاب نيوتن حول التطبيق الحقيقى للأدب المعلق برؤيا دانيال ونهاية الدنيا على العالم الحديث لدرجة أنه أمر بطباعة طبعة جديدة على حسابه).

وهكذا فإن الإيمان بالرب المسيحى ليس ضرورياً، على الرغم من أنه يساعد. ومن ثم، فإنه ليس هناك سبب واضح فى أن الليبراليين اللادريين فى الولايات المتحدة لا يستطيعون تصديق أن الأمريكين هم شعب الله المختار، على الرغم من أنهم، كما لاحظنا فعلاً، ربما يفضلون وصف هذه العقيدة بالمصطلح الأكثر أكاديمية واحتراماً وإيحاء بالحياد، وهو الاستثنائية الأمريكية. وينطبق هذا أيضاً على الاشتراكيين الإنجليز قبل وبعد الحرب العالمية الثانية والذين أرادوا أن يبنوا ما يسميه كوريللى بارنيت فى كتابه المسمى «The Audid Of War»، القدس

الجديدة. وكان بعضهم «لا أدرين» أو ملحدين، ولكنهم كانوا يشتركون فى الرؤية اليوتوبية والألفية، فى الواقع، للاشترائيين المسيحيين. وربما يمكن أن نعددهم، من ثم، جزءاً مكملًا من مشروع الشعب المختار حتى ولو لم يكونوا يؤمنون بإله يقوم بمثل هذه الاختيارات.

ولكن إذا لم تكن أيديولوجية الشعب المختار تستند بصراحة على العقيدة الدينية، فإنها تعتمد بالتأكيد وبدرجة أكبر كثيرًا على نمط بعينه من الوطنية. وخصائص الشعب المختار الكاملة التى حددها العهد القديم تصف أمة أو شعبًا يلقي المكافأة حين يبقى على إخلاصه، ولكنه إذا انحرف فعليه أن يتوقع العقاب بالفشل أو بالهزيمة (ربما يكون ذلك أصل «الدروس المستفادة للمرء» بعد الجلد الشديد بالسياط). ومن ثم فإن الأمة التى لا تبدى سوى القليل فى سبيل إرضاء الرب ستكون تافهة غير مقنعة إذا ما ادّعت أن الرب يقف إلى جانبها. ومن ناحية أخرى فإن الأمة التى تتمتع بالنجاح يمكن أن تقنع نفسها بسهولة أنها تستدفع بالعناية الإلهية الرحيمة.

ذلك ما كان بالتأكيد مزاعم قابلة للتصديق من جانب الإنجليز (أو البريطانيين حتى يكون الأمر أكثر كمالاً) حتى الحرب العالمية الأولى. وكان ذلك عندما زحف أول شك كبير إلى الداخل. وليست هناك مقاييس إحصائية يمكن من خلالها رسم خارطة التدهور فى الثقة الوطنية بتعريف الهوية الإنجليزية على أساس فكرة الشعب المختار. بيد أنه ربما يفترض أن مثل هذه الإحصائيات، إن وجدت، كان لا بد أن تضمحل سنة بعد أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ لأن الدليل على عمل العناية الإلهية الرحيمة كان يضعف باطراد سنة بعد أخرى. وقد يفترض أيضاً أن مثل هذه الإحصائيات سوف تتخذ نموذجاً مشابهاً جداً لإحصائيات عضوية كنيسة انجلترا التى أوردها آلان ويلكنسون فى كتابه الذى يحمل عنوان: «The Church of England and The First World War»، وبعبارة أخرى: «تدهور مطرد قاس على مر السنين». ومن الواضح أن هناك علاقة وطيدة تربط بين الاثنين. فقد حدث شىء فى تلك الحرب، حسبما يستنتج ويلكنسون، لم تشف منه كنيسة انجلترا أبداً.

والواقع، أن السلطة التي تحتاجها كنيسة وطنية لكي تكون قادرة لكي تبشر بالإنجيل بطريقة إجبارية، لا تقوم على مجرد خصائصها الخاصة، ولكن على خصائص الأمة التي ترتبط بها (والتي تزعم أنها تمثل الوجه الروحي لها). والأمة القوية لا بد أن تكون لها عقيدة قوية؛ وسوف يبدو المزيج صلباً بما يكفي لأن يكون مقنعاً. والأمة الإنسانية الخالصة ستكون لها كنيسة إنسانية خالصة، ولن تمر الكثير من المساندة بينهما في اتجاه دون الآخر. ووفقاً لاستطلاع أجراه «المركز الوطني للبحث الاجتماعي - National Centre for Social Research»، نشر سنة ٢٠٠٠م، زعمت نسبة ٤٨ في المائة فقط من الناس في المملكة المتحدة أنهم ينتمون إلى أية ديانة، مقارنة بـ ٨٦ في المائة في الولايات المتحدة. ونسبة الحضور في صلوات كنيسة إنجلترا يوم الأحد نقصت عن مليون علامة للمرة الأولى أواخر التسعينيات من القرن العشرين. وليست مصادفة أن كنيسة إنجلترا قد سعت، في الفترة التي يشملها البحث، إلى أن تدعم ثقفتها بنفسها عن طريق تعظيم دورها ككنيسة أم للطائفة الأنجليكانية وكذلك عن طريق لعب دور «أحسن صديق» للقوة الروحية العظمى في العالم الحديث، أي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تماماً مثلما أفادت السياسية الخارجية البريطانية كثيراً مما يسمى «العلاقة الخاصة» مع القوة العظمى المادية عبر الأطلنطي. وأولئك الذين لاحظوا رئيس الوزراء توني بلير يقف إلى جانب الرئيس بيل كلينتون في احتفالات الأمم المتحدة بالألفية الثانية في نيويورك سنة ٢٠٠٠م، ربما يكونون قد لاحظوا أيضاً كبير الأساقفة جورج كاري يقف إلى جوار البابا يوحنا بولس الثاني في احتفال مماثل في روما. وبكلمات البروتوكول في مثل هذه الأحداث، هو في موضع تشريفي، ولكن في كلمات الحقيقة يلعب دوراً ثانوياً. أو، لكي نكون صرحاء، يستدفع بانعكاسات المجد. وهل هناك أي عجب في أن الشكلىين الصريحين للانحياز اللذين يواجههما الإنجليز عموماً وإلى الآن والذين تعلموا مراعاة الحرص في لغتهم بالنظر إلى المجموعات العرقية أو العنصرية أو الدينية الأخرى، هما نزعة معاداة الأمريكيين ونزعة معاداة الكاثوليك؟ هل هذا هو الحصرم الذي يتذوقه من جاء البديل ليحل محله؟

أما أمريكا، فعلى النقيض، ما تزال تحكى قصة تحظى بالتصديق عن أنها «الشعب المختار»، ويكاد يكون العامل الوحيد الذى يحول بيننا وبين إسباغ ذلك اللقب عليها مباشرة هو الشك المؤرق بأنه فى الحقيقة لا يوجد شعب مختار على الإطلاق، وأن الرب (إذا ما اتفقنا على أن هناك رباً) لا يعمل بهذه الطريقة. وربما لا يهم كثيراً إذا ما كان الأجانب يوافقون على أن أمريكا هى الشعب المختار، أما ما يهم من حيث العائد فهو ما إذا كان الأمريكيون أنفسهم يصدقون ذلك؛ إذ إن الاختيار إلى حد كبير حالة يضع المرء نفسه فيها وتحقيق ذاتى للنبوءة. ومن الواضح أنهم يصدقون، إذا لم يكن بالطريقة التنميطية البروتستانتية التقليدية المستمدة من الكتاب المقدس التى عرفتها الأجيال السابقة، فإنها مستمدة إذن منها بشكل وثيق (وربما بعد أن جردوها من بعض التزاماتها غير المريحة).

ويتصل مثال الشعب المختار إلى درجة عالية بمشكلة العلاقات العنصرية والاندماج العنصرى فى كل من البلدين. والعنصر ليس حقيقة علمية من حقائق الحياة ولكنه بناء إنسانى؛ فهناك عنصر واحد فقط بالمعنى البيولوجى، وهو «الجنس البشرى». وكان «العنصر» يستخدم بصورة تكاد تكون تبادلية مع «الشعب» فى القرن التاسع عشر، وكان يشير لا إلى مجرد الخصائص الجينية المتوارثة فقط ولكن إلى الثقافات المشتركة، والمعتقدات والذكريات. وقد أخذ العنصر معناه الحديث فقط تحت تأثير الداروينية الاجتماعية والنظرية الجينية الباكرا، عند مطلع القرن العشرين. وهكذا، فإن الشعب كمصطلح يصف الجماعة الوطنية، هو الفكرة الأقدم، وأولئك الذين ينظرون إلى العهد القديم بحثاً عن نموذجهم الاجتماعى سوف يجدون وفرة من الأمثلة لمفهوم «الشعب» المستخدم للفرقة بين «نحن» و«هم»، وفى معظم الأمثلة التفرقة بين العبرانيين ومختلف قبائل الكنعانيين - حتى إلى حد القول بأن «نحن» ربما نجعل «هم» عبيداً لنا. وفى اللغة المعاصرة، ويسبب النسب الأموى - (يكون الفرد يهودياً إذا كانت أمة يهودية) فإن هذا التحديد لـ «نحن» هو أيضاً تحديد عنصرى.

ومن ثم فإن مفهوم «الشعب المختار» يمثل مخاطر عظيمة على العلاقات

العنصرية، ومن المؤكد أن هذا هو أصل الشكوك الإنجليزية حول ما إذا كان الشخص الأسود أو الآسيوي يمكن أن يكون إنجليزيًا حقًا. ومجرد الاعتراف بأنهم بريطانيون ليس يكفي؛ لأن هذا تعريف رديء بأكثر مما يجب، كما أنه ليس دالاً بما يكفي (خاصة حين يقلل الاسكتلنديون والويلزيون وغيرهم كثير في شمال أيرلندا من أهمية العنصر «البريطاني» في هويتهم، ويؤكدون على العنصر الاسكتلندي والويلزي والأيرلندي). والإنجليز يرغبون حقًا في أن تكون لهم علاقات عنصرية طيبة، والحقيقة أنهم سيفضلون أن يكونوا مثالاً للأمم الأخرى في هذا المجال؛ ولذلك فإنهم كلما تعلقوا أكثر بماضيهم كشعب مختار، كلما كان ذلك أصعب. وي طرح هذا تحديًا قويًا أمام مؤسستين إنجليزييتين على وجه الخصوص، الملكية وكنيسة إنجلترا؛ لأن هويتهما الماضية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمثال الشعب المختار عن الإنجليزية، وإذا لم تكونا حريصتين، فإن وجودهما سيكون عنصريًا من الناحية الدستورية. وبينما حرص هذا الكتاب على أن يبقى بعيداً عن الصراع في الشرق الأوسط، فإن بعض الاستنتاجات التي توصل إليها عن عواقب نظرية الشعب المختار على العلاقات العنصرية سوف تنطبق على الموقف الإسرائيلي من العرب.

وفي الوقت نفسه، حاولت أمريكا أن تتجاوز الطبيعة المفردة والأحادية للهوية الوطنية الأمريكية، كما كانت منذ نهاية الحرب الأهلية، مثلاً. وقد فعلت هذا دون أن تتخلى عن رؤية نفسها كأمة مختارة. والإنجاز العظيم لـ «مارتن لوثر كنج»، كان أنه أوضح كيف يمكن للتصميم العظيم لأمريكا كأمة مختارة مفردة أن يحتوى داخله على روافد أخرى، جماعات أصغر ترتدى هي الأخرى عباءة المختارين، ولكنها تفعل ذلك بطريقة لا تنكرها على الكل. إنه نموذج للتلاقى في نقطة واحدة، أو «شعب الشعوب». وهناك نموذج من الكتاب المقدس لهذا أيضاً؛ إذ كان الإسرائيليون القدماء في الأصل اثنتى عشرة قبيلة، ولكنهم جميعاً كانوا تحت ميثاق واحد.

و«المشكلة الأمريكية»، إذ حقاً للمرء أن يصوغ مثل هذا المفهوم، هي أنه بينما

كان مطلوباً من هذه القبائل الاثنتى عشرة أن تعامل بعضها البعض بصورة عادلة وبلطف حسب الشريعة الموسوية، لم يكن مطلوباً منها أن تتعامل مع القبائل غير اليهودية، أى القبائل الكنعانية التى تشاطرها العيش فى نفس المكان، بهذه الطريقة. حقاً إن أخلاقيات العهد القديم تبدأ تكتسب صبغة عالمية. وتطبق على اليهود وغير اليهود بالمثل. فى بعض الأنبياء اللاحقين. ويمكن الحكم على مدى عدم توفيقهم من خلال الحقيقة القائلة بأن يسوع كان ما يزال يرى ضرورة التبشير بمثال السامرى الطيب، الذى كان موجهاً بالضبط للسؤال القائل «من هو جارى؟» وتجاه من، غير «الناس الذين مثلى»، أتحمل مسئوليات أخلاقية؟ ومن الواضح أن يهود ذلك الزمان لم يكونوا يفكرون فى أن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه السامريين، وصدمتهم إلى حد ما قصة تقول إن السامريين يشعرون بأن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه اليهود.

وهكذا بينما يحتمل أن تكون أمريكا تحاول أخيراً أن تتعامل بنزاهة مع الجماعات العرقية الثانوية بها، فإنها أمة ما تزال شديدة الوعى بالحدود التى تحدد «مفهوم الشعب» فيها. ويمكن تبسيط هذا بسهولة فى الاقتناع بأن بقية العالم موجود لمصلحة أمريكا. وهذا يختلف عن الدافع وراء الإمبراطورية البريطانية، التى كانت قائمة على أساس الرؤية. مهما كانت عدم كفاءتها فى الواقع. بأن بريطانيا موجودة لمصلحة بقية العالم. وقد يكون هناك بعض العزاء فى أن نعرف أن الشعب المختار الأصلى كان يناضل ضد نفس الصعوبة بالضبط. كانوا شعباً مختاراً، ولكن لمصلحة من؟ ومنذ زمن مبكر، كان من الواضح أن هذا لمصلحتهم، ولكن بمرور الزمن، أشرقت الحقيقة القائلة بأن ذلك كان لمصلحة الإنسانية. وتحتاج أمريكا موعظة السامرى الطيب فيها، وهى سوف تستمع لها من شخص ما.

أعراض الشعب المختار، كما حددناها، تفترض أن الأمم التى يخضع تاريخها لذلك النموذج سوف تمر بدورة. فالإيمان والإخلاص سوف يتبعهما التراخى، ثم عبادة الأصنام والكفر (بالمعنى الدينى على الأقل)، وسوف يؤدى هذا إلى المعاناة

وسوء المصير؛ لأن العناية الإلهية تتدخل لتوقيع العقاب التصحيحي، (وليس هذا لجعل الرب مسئولاً عن سوء المصير؛ فكل ما يفعله هو رفع حمايته). وسوف ينهض الأنبياء لشرح ما جرى مجرى الخطأ ويحضون الشعب المختار على الرجوع إلى طاعتهم السابقة، وعندما يفعلون ذلك، يعودون مرة أخرى (بعد خلاصهم) لحالة النعمة التي كانوا فيها من قبل.

وسواء كانت لهذه النظرية في التاريخ أية قيمة تنبؤية أم لا، فهذه نقطة فيها نظر. فهل سمح الرب حقاً لشعبه المختار (البريطانيين) أن يفقدوا مستعمراتهم الأمريكية عقاباً لهم على تجارة الرقيق؟ وإذا كانت تلك خطة الرب، كيف أمكنه في الوقت نفسه أن يحرر شعبه المختار (الأمريكيين) من الطغيان البريطاني مكافأة على الإخلاص الأمريكي؟ إن القصتين لا تتماشيان سوياً فإذا ما كان الرب يريد لتجارة الرقيق أن تنتهي، لم منح الأمريكيين النصر في حربهم من أجل الاستقلال؟

ويؤدي هذا إلى صعوبة أوسع تتعلق بالتعامل مع نظرية الشعب المختار، كما لو كانت نظرية حقيقية. وأحد الملامح الرئيسية في الترميز البروتستانتي من وحي الكتاب المقدس، حسبما تم تطبيقه في إنجلترا وفي أمريكا على السواء، تمت المبالغة فيه إلى درجة الخيال؛ إذ لم يكن هناك حقاً مؤامرة بريطانية دفينة لحرمان الأمريكيين من حريتهم سنة ١٧٧٤م، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك تخطيط دفين لفرض ملكية مستبدة، بل وبدرجة أقل، فرض الكاثوليكية الرومانية. وأساءت أمريكا قراءة الإشارات، كما أساءت بدرجة من التعمد إعادة طرحها، وكان الدليل في متناول الجميع. وقصة التطور الدستوري في كندا وغيرها كانت قصة تقدم ثابت صوب الديمقراطية والحرية تحت حكم الملكية، والواقع أن كندا كانت هي الأرض الموعودة بالنسبة للعبيد في أمريكا؛ حيث كانوا يجدون الأمان بين ذراعي الملكة فيكتوريا. بل إن الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين اعترفوا بأنهم كانوا سيحصلون على اتفاق أحسن في كندا.

و«الهروب من الطغيان» على النمط الوارد في الكتاب المقدس بالنسبة لانجلترا، أثناء معظم القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، كانت

تحركه أشباح الكاثوليكية الرومانية، التي نُظر إليها على أنها الإمبراطورية الطاغية للمسيح الدجال. ولكن مفهوم أن الكاثوليكية كانت شيطانية في الأصل كان قد أسقط بشكل يكاد يكون تاماً عند بداية القرن التاسع عشر، وكان أحد المؤثرات في ذلك وصول آلاف من اللاجئين الكاثوليك الفرنسيين إلى إنجلترا هرباً من الرعب. ولم يشعر الإنجليز فقط بالأسف من أجلهم، ولكنهم وجدوهم متحضرين، ومثقفين، ومتعلمين، ومسيحيين بشكل واضح، بكل وسيلة يمكن للبروتستانت أن يعرف بها مهما كان تطرفه. وربما كان لديهم نظام سياسى أدنى، بيد أنه من الواضح أنهم لم يكونوا أعوان الشيطان. إلا أن الكاثوليكية في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر لم تكن تختلف كثيراً عن الكاثوليكية التي برزت من إصلاح مجمع ترنت حتى قبل عهد الملكة إليزابيث الأولى؛ إذ كان هذا المجمع قد بدأ لكي يكون حدثاً محدداً، كان «مجمعاً لإنهاء المجمع»، والحقيقة أنه لم يتم عقد المجمع التالى حتى سنة ١٨٧٠ م. وإذا كانت الكاثوليكية عند بداية القرن التاسع عشر لم تكن تجسيدا للشر، فإنها إذن لم تكن كذلك قبل قرنين من الزمان.

واستمر كتاب فوكس الشهير «Book of Martyrs»، والذي أعيدت طباعته بانتظام طوال تلك الفترة، فى نشر رسالته المؤذية. وقد تحرر الكاثوليك سنة ١٨٢٩ م، ولكنهم لم يكونوا محل ثقة حتى ذلك الحين. وعندما تم تكوين السلك الكهنوتى الكاثوليكى فى إنجلترا سنة ١٨٥٠ م، كانت هناك عاصفة من الاحتجاج ولقاءات جماهيرية حاشدة فى جميع أرجاء البلاد. ولكن دونما أن يقدم الكاثوليك تنازلاً واحداً، سرعان ما مرت موجة البارانونيا المعادية للكاثوليكية وتم إعادة نوع من التسامح الفاعل وإن لم يكن كاملاً. ولا شىء من هذا يبرهن على أن الكاثوليكية نظام مكتمل، ولكنه يوضح بالفعل أن المخاوف المتطرفة التى حكمت السياسات الإنجليزية والمشاعر الدينية الإنجليزية فترة تزيد على ثلاثة قرون. وترددت أصداؤها بإخلاص على الجانب الآخر من الأطلنطى. كانت مبالغة إلى درجة جنون الاضطهاد (البارانونيا)، ولعبت نظرية الشعب المختار دوراً رئيسياً فى الدفاع عن إنجلترا ضد البابوية. المؤامرة المزعومة بين الكنيسة الكاثوليكية وأعداء إنجلترا الأوروبيين. ليس أقله ما حدث زمن خلع جيمس الثانى و«الثورة المجيدة»

سنة ١٦٨٨ م، وفى التمرد التالى من جانب أنصار المذهب اليعقوبى الذين شكّلوا مصدر تهديد مستمر . ولكن هل كان الأمر سيصبح كارثيًا حقًا إذا ما سُمح لچيمس الثانى أن يُكمل عهده؟ هل كان خلعه حقًا هو النقطة الفارقة فى التاريخ الإنجليزى حسبما قالت أجيال من مؤرخى الهويج الذين ساروا على درب ماكولى؟ أم أن سلخ الكاثوليكية كان ببساطة شرطًا ضروريًا لكى تؤتى أسطورة الشعب المختار سحرها، بكل ما فاض وتدفق من جراء هذا؟ هل كانت عظمة انجلترا مبنية حقًا على مثل هذه الأسس الخيالية؟

وبذلك فإن استنتاجنا النهائى عن نظرية الشعب المختار ينبغى أن يكون أنه بينما ما تزال هذه النظرية مؤثرة، فإنها ببساطة ليست حقيقية - ولم تكن أبدًا - والدليل التاريخى وحده يفندها، مهما نفخنا فى الموضوع اللاهوتى. وبينما حققت حيوية قوية فى حيازة الأمتين اللتين آمنتا بها عن أنفسهما، فإن هذه النظرية جعلتهما يعتقدان أيضًا أن من حقهما السعى وراء مصالحهما الخاصة حتى لو تعارضت مع مصالح الآخرين.

مثل هذه الأمم مصدر تهديد محتمل للأمم الأخرى، بيد أنها سوف تشعر شعورًا مكشّفًا بأنها على حق، وتقتنع بأن التبرير الأخلاقى لأفعالها يكمن فى وضعها الفريد، كما أنها لن تسمح للآخرين بمحاسبتها. إذا كان «ملاك يركب فى الريح الدوارة ويوجه هذه العاصفة» كما كتب جون بيج إلى توماس جيفرسون، فإن استنتاج جورج بوش (*) إذن، يكون صحيحًا: أن الوقوف فى وجه أمريكا هو مقاومة لإرادة الرب.

وبينما، لو كانت نظرية الشعب المختار حقيقية، كان يمكن الاعتماد على الرب لعقاب أمة أساءت استغلال وضعها المختار، كما عاقب العبرانيين القدماء فى بعض الأحيان، فإن مثل هذه التصحيحات لا تحدث فى العالم الحقيقى. وسفر الأمثال (١٦ : ١٨) قد يحذر من أن «قبل الانكسار الكبرياء، وقبل السقوط غطرسة الروح»، وقد يصدق الأمريكيون وقد يكونوا حذرين بشأنه. وهذه قليلة، بيد أن

(*) قال ذلك فى خطاب تنصيبه رئيسًا للولايات المتحدة.

هذا ليس قانونًا عالميًا؛ إذ إن تأثيرات أمة قوية مقتنعة بأن الرب إلى جانبها لا يمكن أن تكون محدودة بذاتها. فهي يمكن غالبًا أن تعمل، صوابًا أم خطأ، وهي متمتعة بالحصانة. والحقيقة، أنه في الحالة المتطرفة، يمكن لحالة الشعب المختار أن تتحول إلى نزعة وطنية دينية حماسية يمكن أن تتحول إلى فاشية.

.....

.....

وأفضل طريقة لضمان ألا يتحول هذا الاحتمال إلى واقع هي أن نكون مدركين له، وأن نتخذ الخطوات لمقاومته. وذلك أمر ضروري للأمريكيين أنفسهم مثلما هو ضروري لبقية العالم. ولكن ما إذا كانت لدى أمريكا وبقية العالم الشجاعة والحكمة المعادلة لهذه المهمة الرهيبة أمر آخر.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	٥
الإمبراطورية والإرسالية والحرب.....	٧
الجنس والأعمال الوحشية.....	٥٥
المختارون يواجهون المحدثين.....	٨٧
أوسع وأكثر اتساعاً.....	١٣٥

رقم الإيداع ٣٩٤٠ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-09-0932-7

مطابع آمون

٤ الفيروز من ش. إسماعيل أباطة

لاظوغلى - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

هذا الكتاب

* يتحدث هذا الكتاب عن أسطورة «الشعب المختار» التي شكلت ثقافة الأنجلوساكسون (انجلترا وأمريكا) لعدة قرون.

* فداخليا، بعثت على هجرة اليوريتانز لأمریکا، ثم حرب الاستقلال، بل والحرب الأهلية.

* أما خارجيا، فهي تارة حمل الرجل الأبيض لتمدين آسيا وأفريقيا بالاستعمار، وتارة أخرى استعباد الزوج للإنعام عليهم بالمسيحية وحضارة الرجل الأبيض.

* ويبدو أن لتلك الأسطورة ظلالا فيما نعانیه الآن في الشرق الأوسط من فرض القيم والحياة الأمريكية، سواء كان ذلك على أسس من الصهيونية (المسيحية واليهودية)، أو على أسس من الرأسمالية والداروينية الشاملة (فكريا واقتصاديا وماليا وعسكريا)، وما يتبع ذلك من تأمين المصالح، أو على أسس من الدين الأمريكي المدني، الذي هو خليط من كل ماسبق، مع ليبرالية انتقائية، تختار قضاياها ومجالات تطبيقها.

كليفورد لونجلي

* مؤلف وصحافي وإذاعي بريطاني معروف، يكتب عموده الأسبوعي في الصحافة الإنجليزية (جريدة التايمز وجريدة ديلي تلجراف) منذ حوالي ٢٠ سنة.

* كذلك يكتب لأسبوعية (الكاثوليك الرومان) والتابليت، وهو متزوج من أمريكية.